موسوعة

أخلاق القرآن

الجزء الرابع

تأليف
الدكتور احمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص . ب ٦٥٨٥

الطبعــة الاولى

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

اخلاق القرآن ج٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبائه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين .

وأستفتح بالذي هو خير :

« رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ » .

قبس من كتاب الله

« وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ » .

« سورة البقرة »

تصـــدير

هذا هو الجزء الرابع من كتابي « أخلاق القرآن » .

وخير ما افتتحه بعد هذا الفضل العميم من رحمة الله ونعمته ، أن أرتل قول الحق تبارك وتعالى في سورة يونس :

« يَا أَيُّها النَّاسُ قَـدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّـا يَجْمَعُونَ » .

ولا يسأم الانسان الدعاء لله تبارك وتعالى أن يديم منته ، وأن يواصل نعمته ، فنحن الفقراء الى الله ، والله هو الغني .

والمأمول في سعة فضله أن يتم آلاءه بتمام هذا الكتاب المستمد من هدي القرآن المجيد ، وأنوار التنزيل الحكيم .

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وعلى الله قصد السبيل .

أبو حازم
أحمد الشرباصي

العـزيمـة

تدل مادة « العزيمة » في اللغة على القوة والسرعة والاقدام ، فالعزيم هو الجري الشديد ، واعتزم الجوادُ في الجري ، أي مرَّ فيـه جامحا ، والعزم هو الجد ، والعزم في لغة هذيل هو الصبر ، ومنه قوله تعالى :

« فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ » (١) .

وفي حديث أم سلمة : « فعزم الله لي » أي خلق لي قوة وصبرا .

والعزم ــ أو العزيمة ــ عقد القلب على الشيء تريد أن تفعله ، وهو توطين النفس على هذا الفعل لاعتقاد أن الواجب يقضي بأن تفعله ، ولذلك يقال في لغة القرآن : هذا من « عزم الأمور » أي من محكمات الامور التي ظهر رشدها وصوابها ، ووجب على العاقل أن يعزم عليها ويقوم بها ، وهذا معنى يدل على الثبات واستقرار النية والتصميم على القيام بالشيء ، وضد العزيمة هو التردد والاضطراب في الرأي ، ولذلك يقال : ما لفلان عزيمة. أي ليس له ما يعقد عليه قلبه ، ولا يثبت على شيء لتردده وتلونه ، كأنـه لا يمكنه أن يصرم أمره ، بل يختلط فيه ويتردد .

---

(١) سورة الاحقاف ، الآية ٣٥ .

والعزيمة خُلُق قرآني ، وفضيلة اسلامية ، أشار اليها التنزيل المجيد أكثر من مرة ، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم في سورة آل عمران :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ »[1] .

هنا يأمر الله تبارك وتعالى نبيه أن يشاور قومه فيما يعرض من أمور تستحق المشاورة ، لأن الشورى فيها تقليب لأوجه الرأي ، لاختيار اتجاه محدد ، فاذا أدت الشورى عملها ، جاء عقبها العزم والمضاء في التنفيذ ، مع التوكل على الله ، دون تردد أو تأرجح ، فالخطة واضحة : رأي ومشاورة ، ثم حسم وعزم ، ثم توكل على الله : « ان الله يحب المتوكلين » .

ولقد تعرض « تفسير المنار » لتفسير الآية فذكر أن العزيمة تأتي بعد الدراسة والمشاورة ، واستعراض وجوه الرأي من أهل المشورة ، واعداد العدة ، حتى تقبل معونة الله ، ويتهيأ النصر ، فنراه يقول : « فاذا عزمت بعد المشاورة في الامر على امضاء ما ترجحه الشورى ، وأعددت له عدته، فتوكل على الله في امضائه ، وكن واثقا بمعونته وتأييده لك فيه ، ولا تتكل على حولك وقوتك ، بل اعلم ان من وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وأكمل ، يجب أن يكون بها الثقة ، وعليها المعول ، واليها اللجأ اذا تقطعت الاسباب ، وأغلقت الابواب .

وقال الاستاذ الامام ما معناه : ان العزم على الفعل ، وان كان يكون بعد الفكر واحكام الرأي والمشاورة وأخذ الاهبة ، فذلك كله لا يكفي للنجاح الا بمعونة الله وتوفيقه ، لأن الموانع الخارجية له ، والعوائق دونه،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

لا يحيط بها الا الله تعالى ، فلا بد للمؤمن من الاتكال عليه ، والاعتماد على حوله وقوته .

ان الله يحب المتوكلين على حوله وقوته ، مع العمل في الاسباب بسننه . أقول : ومن أحبه الله عصمه من الغرور باستعداده ، والركون الى عدته وعتاده ، والبطر الذي يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك ، حتى لا يقدره قدره. ولا يحكم فيه أمره. فبدلا من أن يكون نظره في الامور بعين العجب والغرور ، واستماعه لأنبائها بأذن الغفلة والازدراء ، ومباشرته لها بيد التهاون ، يلقي السمع وهو شهيد ، وينظر بعين البصيرة فبصره حينئذ حديد ، ويبطش بيد الحزم فبطشه قوي شديد ، ذلك بأنه يسمع ويبصر ، ويعمل للحق ، لا للباطل الذي يزيّنه الهوى ، ويدلي به الغرور ، فيكون مصداقا للحديث القدسي : « فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها » .

ثم ذكر التفسير أن الآية صريحة في وجوب امضاء العزيمة المستكملة لشروطها — وأهمها في الامور العامة : حربية كانت أو سياسية أو ادارية : المشاورة — وذلك أن نقض العزيمة ضعف في النفس ، وزلزال في الاخلاق، لا يوثق بسن اعتاده في قول ولا عمل ، فاذا كان ناقض العزيمة رئيس حكومة أو قائد جيش ، كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضا للثقة بحكومته وبجيشه ، ولا سيما اذا كان بعد الشروع في العمل .

ولذلك لم يصغ النبي صلى الله عليه وسلم الى قول الذين أشاروا عليه بالخروج في غزوة أحد ، حين أرادوا أن يرجعوا عن رأيهم ، خشية أن يكونوا قد استكرهوه ، وكان قد لبس ملابس الحرب ، فعلّمهم بذلك أن لكل عمل وقتا ، وأن وقت المشاورة متى انتهى أعقبه العمل ، وأن القائد اذا شرع في العمل تنفيذا للشورى ، لا يجوز له أن ينقض عزيمته ويبطل عمله . وان كان يرى أن أهل الشورى قد أخطأوا الرأي ، ويمكن أن نرجع

هذا الى قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وأي ضرر أشد من فسخ العزيمة، وما فيه من الضعف والفشل وابطال الثقة ؟!.

هكذا صور التفسير هذا الرأي في المراد بالعزيمة عقب الشورى ، وهو رأي تستريح اليه النفس ، ولكن هناك رأيا آخر نذكره استكمالا لوجهات النظر ، وقد عبر عنه صاحب « عمدة التفسير » بهذه العبارة :

« معنى الآية واضح صريح لا يحتاج الى تفسير ، ولا يحتمل التأويل، فهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لمن يكون ولي الامر من بعده ، أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأي ، الذين هم أولو الاحلام والنهى ، في المسائل التي تكون موضع تبادل الآراء ، وموضع الاجتهاد في التطبيق، ثم يختار من بينها ما يراه حقا، أو صوابا، أو مصلحة، فيعزم على انفاذه ، غير متقيد برأي فريق معين ، ولا برأي عدد محدود : لا برأي أكثرية ، ولا برأي أقلية ، فاذا عزم توكل على الله ، وأنفذ العزم على ما ارتآه .

ومن المفهوم البديهي الذي لا يحتاج الى دليل أن الذين أمر الرسول بمشاورتهم — ويأتسي به فيه من يلي الامر من بعده — هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله ، المتقون الله ، المقيمو الصلاة ، المؤدو الزكاة ، هم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهى » .

ويقول الله تبارك وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام في سورة الأحقاف : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » أي أصحاب الجد والثبات ، والصبر والعزيمة . وقد قيل ان المراد بأولي العزم من الرسل طائفة منهم ، وهم نوح ، لأنه صبر على أذى قومه ، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وابراهيم الذي قدم ابنه للفداء والذبح ، ويعقوب الذي صبر على فقد الولد وذهاب البصر ، ويوسف الذي صبر على الالقاء في الجب

والسجن ، وأيوب الذي صبر على المرض والضرر ، وموسى الذي صبر على الاهوال والمتاعب ، وداود الذي بكى طويلا على زلته . وعيسى الذي لم يضع لبنة على لبنة .

وقيل ان أولي العزم من الرسل كل الرسل ، فكأن الله تعالى يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى أقوامهم ، وكانوا أصحاب عزم وعزيمة ، فصبروا وثبتوا .

* * *

ونستطيع أن نفهم من منطق القرآن الكريم أن فضيلة العزيمة تصحب فضيلتي التقوى والصبر ، فان الله تبارك وتعالى يقول في سورة آل عمران :

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[1] .

أي ستتعرضون للابتلاء والاختبار في أموالكم بالبذل أو النقص أو الجوائح ، وفي أنفسكم بالمرض أو الجراح أو التعب ، وستسمعون كلاما شديدا مؤذيا من أهل الكتاب ومن المشركين ، وان تتحملوا هذا الابتلاء بصبر وقوة وعزيمة ، وتتقوا المعصية أو الضعف ، فان ذلك من الامور التي يجب أن تعزموا عليها وتصدقوا فيها .

ولا شك أن فضيلة العزيمة تتجلى بصورة رائعة حينما يعقد الانسان ارادته على تحمل أذى القول من أهل الضلال والسفه ، لأن ضبط النفس

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦ .

عند دواعي الغضب والثورة ، مما يدل على قوة الشخصية وثبات الارادة . ولعل هذا بعض ما نفهمه من الآية الكريمة السابقة . ومن قول سيدنا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « ليس الشديد بالصُّرعة . انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وكذلك نفهم من منطق القرآن أن فضيلة العزيســة تصحب فضيلتي العفو والغفران . فذلك حيث يقول الحق جل جلاله في سورة الشورى :

« وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » (١) .

أي من الصفات التي يجب أن يعزم عليها المؤمن ويستمسك بها .

وليس من العسير علينا أن نفهم أن فضيلة العزيمة تطوي بين جناحيها مجموعة فضائل . ولعله مما يشير الى ذلك قوله تعالى في سورة لقمان :

« يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، واصْبِرْ عَلَى ما أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » (٢) .

لقد ذكرت الآية هنا الصلاة ، وفيها عبادة الله باخلاص ، والمحافظة عليها تحتاج الى عزيمة .

وذكرت الأمر بالمعروف ، ولا بد للآمر الصادق بالمعروف من التزام المعروف أولا ، وهذا يحتاج الى عزيمة ، كما أن القيام بالامر بالمعــروف يحتاج الى عزيمة .

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٣ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ١٧ .

وذكرت النهي عن المنكر ، وهذا يقتضي انتهاء الناهي عن المنكر أولا ، وهو يحتاج الى عزيمة ، كما ان القيام بالنهي عن المنكر يحتاج الى صبر واحتمال وعزيمة .

وذكرت الصبر على ما يصيب الانسان ، وهذا الصبر يحتاج الى عزيمة أي عزيمة .

هذه الفضائل الاربع تتجلى فيها العزيمة الراشدة ، ولذلك خُتمت الآية بقوله : « ان ذلك من عزم الامور » .

هذا ، ولقد أخذ القرآن الكريم على آدم ــ عليه السلام ــ « أن الشيطان وسوس اليه فحال بينه وبين قوة العزم ، في موطن من المواطن ، وهو موقف الأكل من الشجرة في الجنة ، فقال في سورة طه :

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(١) .

أي لم نجد له صبرا أو عزيمة ، حيث لم يحترز عن الغفلة ، ولم يحرص على الاحتياط في الاجتهاد ، فأنساه الشيطان عهده ، فأكل من الشجرة .

* * *

ثم نأتي الى حديث العزيمة في هدى سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو المثل الاعلى في الصبر والثبات والعزيمة . وهو الذي كان يدعو ربه فيقول : « اللهم اني أسألك العزيمة في الرشد » . والذي قال لنا : « خير الأمور عوازمها » أي فرائضها التي عزم الله علينا بفعلها ، أو هي ما أكدت رأيك وعزمك عليه ، ووفّيت بعهد الله تعالى فيه .

---

(١) سورة طه ، الآية ١١٥ .

ولقد جاء في كتاب « البداية والنهاية » لابن الأثير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : متى توتر ؟

فأجاب أبو بكر : أول الليل .

وقال النبي لعمر : متى توتر ؟.

فأجاب عمر : من آخر الليل .

فقال الرسول لأبي بكر : أخذت بالحزم .

وقال لعمر : أخذت بالعزم .

أراد صلوات الله وسلامه عليه أن أبا بكر حذر فوات الوتر بالنوم فاحتاط وقدّمه ، وأن عمر وثق بالقوة على قيام الليل فأخّر الوتر ، واذا كان أبو بكر قد أحسن ، لأنه قدم الحزم على العزم ، فان عمر قد أحسن كذلك ، لأن عزيمته وجهته الى طريق الثقة والقوة ، ورضوان الله تبارك وتعالى على العمرين : أبي بكر وعمر .

وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم يرشدنا الى أن العزيمة لا تستلزم التشدد أو التنطع ، أو القسوة على النفس في مواطن التيسير ، ولذلك يقول : « ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » والعزائم جمع عزيمة ، وهي الحق والواجب ، فاذا كان صاحب العزيمة يمضي في أداء الواجبات والفرائض بجد واجتهاد ، فانه ينبغي له أن يتقبل بقبول حسن ما يسوقه اليه من تيسير في المواطن التي يناسبها التيسير .

كما يرشدنا الهدى النبوي أن العزم فيه عقد نية ، وهو نوع من الاستقرار وعقد القلب ، فيقول : « لا صيام لمن لم يعزم من الليل » . أي لم يعقد نية الصوم من الليل .

وللرسول عليه الصلاة والسلام موقف تجلت فيه القدوة العليا

للعزيمة الضادقة ، فذلك حيث تحدى قوى الشرك والكفران ، وقال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

ما أشد حاجتنا الى فضيلة « العزيمة » تعلمنا أن نكون أصحاب حزم وعزم ، وأن نفكر فنحسن التفكير ، ثم نقدم اقدام الابطال المغاوير ، وعلى الله قصد السبيل .

الارادة

يقال : أراد الانسان الشيء يريده ارادة : اذ مال اليه ورغب فيـه . ولفظة « الارادة » منقولة من راد يرود ، اذا سعى في طلب الشيء ، ومن هنا قال الامام في صفة الصحابة رضوان الله علـى الجميـع : « يدخلون روادا ، ويخرجون أدلة » أي يدخلون طالبين العلم ، وملتمسين الحكمة ، ويخرجون أدلة هداة للناس . وفي حديث وفد عبد القيس : « انا قـوم رادة » أي نرود الخير والدين لأهلنا . والرائد هو الذي يتقدم القوم طالبا الخـير .

ويرى الأصفهاني في « مفردات القرآن » أن الارادة في الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل ، وجُعلت اسما لنزوع النفس الى الشيء ، مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يفعل ، وقد يراد بها القصد كمـا في قوله تعالى :

« تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً .. » (١) .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٨٣ .

والارادة بالمعنى الأخلاقي هي الرغبة في الخير والسعي اليه والحرص عليه . ولذلك قيل ان الارادة هي ارادة التقرب الى الله ، أي ارادة طاعته الموجبة لثوابه . والله جل جلاله لا يأمر الا بالخير ، ولا يدعو الا الى الحق .

« واللَّهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[1] .

ومن عيوبنا الواضحة ضعف الارادة . ولقد يعرف الانسان منا طريق الخير ولا يستجيب له بقوة أو عزيمة . وقد تكون لديه الرغبة في بلوغ أمر . ولكنه لا يتخذ من ارادته القوية الحازمة مركبا الى تحقيق أمله وبلوغ مطلبه .

ولقد تحدث القرآن الكريم في أكثر من موطن عن ارادة الخير . وعدّ ذلك فضيلة يتحلى بها الأخيار من عباده ، وقد يعبر عن هذه الفضيلة الجليلة بأنها « ارادة وجه الله » .

وينبغي أن تتذكر هنا أن الارادة صفة من صفات الله تبارك وتعالى . فهو سبحانه صاحب الارادة الكاملة الشاملة المطلقة ، والقرآن يصف الحق جل جلاله بأنه « فعال لما يريد » وبقوله :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[2]

ويقول الغزالي في بيان هذه الصفة :

« ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدىء المعيد . الفعال لما يريد ، لا رادّ لأمره ،

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٥ .
(٢) سورة يس ، الآية ٨٢ .

ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته ، الا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته الا بمشيئته وارادته . فلو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون ارادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك » .

* * *

ولقد أثنى الحق عز شأنه على عباده الابرار أصحاب الارادة المستقيمة الكريمة . فقال في سورة الانعام :

« وَلاَ تطْرُدِ الَّذِينَ يدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » (١) .

أي يريدون طاعته ويخلصون فيها ، ويتوجهون الى الله لا الى غيره ، وخص الغداة والعشي بالذكر ـ وهما أول النهار وآخره ـ لأن الشغل الدنيوي غالب فيهما على الناس ، ومن كان في وقت الشغل مقبلا على العبادة فهو في أوقات الفراغ من الشغل أعمل ، أو لعله أراد أنهم يدعون ربهم في كل الاوقات ، وعبر عن الكل بالبداية والنهاية .

وعاد القرآن المجيد الى تأكيد هذا المعنى فقال في سورة الكهف :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا » (٢) .

وأرشد القرآن الى أن مكارم الصفات ارادة العزة الحقيقية القويمة ،

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٥٢ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

وأن مصدرها هو الله جل جلاله ، وأن جوهرها الكلم الطيب والعمل الصالح ، فقال في سورة فاطر :

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[1] .

وكأن النص الحكيم يقول : من تولدت عنده ارادة الاعتزاز والرغبة في الرفعة والسمو فليتجه الى الله وحده ، وليستمد منه هذه العزة ، فهو سبحانه مصدر كل عز ، وواهب كل رفعة ، وليتلمس ذلك بالقول الجميل الطيب ، والعمل الصالح النافع .

ويشير القرآن الى أن الارادة الخيِّرة لها أركانها التي تنهض عليها وتتحقق بها ، فيقول في سورة الاسراء :

« وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً »[2] .

أي من كانت ارادته متجهة الى ثواب الدار الآخرة ــ لأنها الاعلى والابقى والاحلى ــ وعمل لها عملها اللائق بها المناسب لها ، وكان هذا العمل المبرور قائما على الايمان ، مستندا الى اليقين ، فذلك هو الفائز السعيد ، الذي يتقبل الله منه عمله ، ويرضى عنه ، ويشكره له بالثواب والنعيم .

ويشير القرآن الى أن أصحاب الارادة القوية المخلصة يتحملون في سبيلها متاعب فيقول في سورة النور :

---

(١) سورة فاطر ، الآية ١٠ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ١٩ .

« وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[1] .

فهؤلاء الفتيات يردن العفة والحصانة ، ولكن مالكيهن يحرضونهن على الانحراف فيأبين فيتعرضن للعنت والاذى ، ولقد ذكر أهل التفسير أن رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول كانت له جارية تسمى « معاذة » ، وكان يُكرهها على الزنى ، فتأبى فيؤذيها ، فذهبت الى أبي بكر رضي الله عنه تشتكي اليه ذلك ، فأبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقبضها ويصونها منه ، ونزلت الآية :

* * *

والارادة ليست مجرد كلام وادعاء ، بل عمادها الالتزام والعمل ، مع الاعداد والاستعداد ، وفي سورة التوبة جاء قوله تعالى :

« وَلَوْ أَرادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً »[2] .

أي من الزاد والراحلة والسلاح وغيره ، مما يعد لمثل هذا السفر البعيد . وهنا نتذكر قول أبي الطيب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

والارادة السليمة القوية تقتضي استغلال الاوقات وقتا بعد وقت . ولعل الكتاب المجيد يشير الى هذا حين يقول في سورة الفرقان :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٤٦ .

أَنْ يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُوراً »[1] .

فالله جل جلاله قد أوجد الليل والنهار ، يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان ولا يفتران ، اذا ذهب هذا أقبل هذا ، واذا جاء هذا ذهب ذاك ، وانما جعلهما الله متعاقبين لعمل عباده الموصول ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وبذلك يعوض ما فاته أو ما فرط فيه ، وفي الحديث : « ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » . وفي الحديث أيضا : « أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل » .

والارادة قد تنزل في مستواها ، فلا تكون مفخرة لصاحبها ، وان حققت له شيئا من المتاع ، وقد تعلو وتسمو حتى تلحق بجناب الله ورحابه، وهذا يذكرنا بقول الله تعالى في سورة الأحزاب :

« يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ، وإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فإِنَّ اللهَ أَعدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً »[2] .

وكانت ارادة نساء النبي ــ بعد التخيير ــ ارادة سامية عالية ، فقد صبرن على الضراء واللأواء . وأعرضن عن الدنيا ، وأردن الله ورسوله والدار الآخرة ، ولقد روت السيرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذهب

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٢ .
(٢) سورة الاحزاب ، الآيتان ٢٨ و٢٩ .

عقب نزول الآية الى السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعرض عليها الأمر ، ونصحها ألا تجيب حتى تستشير أبويها ، ولكنها عجلت بالجواب ذاكرة أن الامر لا يحتاج الى مشاورة ، وقالت : بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأجابت الزوجات الطاهرات كلهن بمثل هذا الجواب ، رضوان الله عليهن .

وهكذا كانت كل منهن عندها الارادة الشخصية الكافية لتقرير الخطة واجابة السؤال .

وهذا هو سيدنا ورائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يضرب المثل الاعلى في الارادة القوية العازمة الحازمة حين يقف في وجه الشرك والكفر قائلا : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .



ولقد تحدثت الصوفية عن « الارادة » على طريقتهم ، فورد عنهم أكثر من تعريف للارادة ، فهي عندهم « ترك العادة » ، أو « نهوض القلب في طلب الحق » أو هي « لوعة تهوّن كل روعة » . ويقول الدقاقي : « الارادة لوعة في الفؤاد ، لذعة في القلب ، غرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيران تأجج في القلب » . ويقول أبو محمد المرتعش : «الارادة حبس النفس عن مراداتها ، والاقبال على أوامر الله ، والرضا بموارد القضاء عليه » . ولعل أقرب أقوال هؤلاء الى المعنى الاخلاقي هو من يقول ان الارادة هي مخالفة العادة ، أي ترك عادات النفس وشهواتها ورعوناتها ، والاقبال على هدى الله عز وجل .

ولقد تحدث القوم طويلا عن « المريد » ، وهو الذي شرع في السير الى الله ، وهم يرونه فوق « العابد » ودون « الواصل » . ومن صفات

المريد عندهم التحبب الى الله بالنوافل ، والاخلاص في نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الاحكام ، والايثار لأمر الله ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود في محبوبه ، والتعرض لكل سبب يوصل اليه ، والقناعة بالخمول ، وعدم قرار القلب حتى يصل الى وليه ومعبوده .

وهم يرون ان الوقت أعز شيء على المريد ، ويغار عليه أن ينقضي دون أداء واجب فيه ، فان الوقت اذا فات لا يمكن استدراكه أبدا ، لأن الوقت التالي له واجب خاص يتعلق به ، فاذا فات فلا سبيل الى تداركه ، وهكذا : والاشتغال بالندم على وقت فائت تضييع لوقت حاضر ، ولذلك قيل : الوقت سيف ان لم تقطعه قطعك ، ومعنى هذا أن الارادة حركة مستمرة دائبة ، تدفع صاحبها على الدوام الى أداء واجب والقيام بتبعة .

والارادة تقوى بحياة القلب ، ولذلك يقول ابن القيم : « كلما كان القلب أتمّ حياة ، كانت همته أعلى ، وارادته ومحبته أقوى ، فان الارادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب ، وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وارادته، فضعف القلب وفتور الهمة : اما من نقصان الشعور والاحساس ، واما من وجود الآفة المضعفة للحياة ، فقوة الشعور وقوة الارادة دليل على قوة الحياة ، وضعفها دليل على ضعفها .

وكما أن علو الهمة وصدق الارادة والطلب ، من كمال الحياة ، فهو سبب الى حصول أكمل الحياة وأطيبها ، فان الحياة الطيبة انما تنال بالهمة العالية والمحبة الصادقة والارادة الخالصة ، فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة ، وأخس الناس حياة أخسهم همة ، وأضعفهم محبة وطلبا ، وحياة البهائم خير من حياته كما قيل :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم ، والردى لك لازم
وتكدح فيما سوف تنكر غبة ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم
تُسر بما يفنى ، وتفرح بالمنى ... كما غرّ باللذات في النوم حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والارادة والهمة، والناس اذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا : هو حي القلب . وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب . كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله :

رأيت الذنوب تميت القلوب — وقد يورث الذل ادمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب — وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين الا الملو — ك ، وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس ولم يربحوا — ولم يغل في البيع أثمانها
فقد رتع القوم في جيفة — يبين لذي اللب خسرانها »

والقوم يرون أن المريد يتمكن من الارادة بثلاثة أمور ، هي صحة القصد ، وصحة العلم ، وسعة الطريق ، ويعلق ابن القيم على هذه الامور، فيذكر أنه بصحة القصد من المريد يصح سيره ، وبصحة العلم ينكشف له الطريق . وبسعة الطريق يهون عليه المسير . وكل طالب أمر من الامور لا بد له من تعيين مطلوبه ، وهو المقصود ، ومعرفة الطريق الموصل اليه ، والأخذ في السلوك . فمتى فاته أمر من هذه الامور لم يصح طلبه ولا سيره . فالامر دائر بين مطلوب يتعين ايثاره على غيره ، وطلب يقوم بقصد من يقصده ، وطريق يوصل اليه .

فاذا تحقق العبد بطلب ربه وحده تعين مطلوبه . فاذا بذل جهده في طلبه صح له طلبه . فاذا تحقق باتباع أوامره واجتناب نواهيه صح له طريقه . وصحة القصد والطريق موقوفة على صحة المطلوب وتعينه .

ويرى القوم أن الارادة الصادقة تشغل المريد عن ارادة أي شيء سوى الله تعالى . ويحذرون المريد أن يريد السِّوى — أي غير الله — وان علا ، والمرء يحجب عن الله بقدر ارادته لغيره . ولذلك قال الحق جلا جلاله اخبارا عن عباده المقربين :

« إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً »[1] .

وقال تعالى :

« وَما لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى »[2] .

ولقد توسعوا في الحديث عن ارادة العبد بالنسبة الى ربه جل جلاله، وقد جاء في كتاب « مدارج السالكين » حول هذا الموضوع كلام دقيق عميق ، من الخير أن نقف عليه بنصه ، فهو يقرر أن الناس في هذا المجال أربعة أقسام :

« أحدهم : من لا يريد ربّه ولا يريد ثوابه ، فهؤلاء أعداؤه حقا ، وهم أهل العذاب الدائم ، وعدمُ ارادتهم لثوابه اما لعدم تصديقهم به ، واما لايثار العاجل عليه ولو كان فيه سخطه » .

والقسم الثاني من يريده ويريد ثوابه ، وهؤلاء خواص خلقه . قال الله تعالى :

« وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً »[3] .

فهذا خطابه لخير نساء العالمين ، أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة الانسان ، الآية ٩ .
(٢) سورة الليل ، ١٩ و٢٠ .
(٣) سورة الاحزاب ، ٢٩ .

وقال الله تعالى :

« وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وسَعَى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأُولئِكَ كانَ سَعْيُهم مَشْكُوراً »[1] .

فأخبر ان السعي المشكور سعي من أراد الآخرة ، وأصرح منها قوله لخواص أوليائه ، وهم أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم في يوم أحد :

« مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، وَمِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ »[2]

فقسمهم الى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما .

وقد غلط من قال : فأين من يريد الله ؟ فان ارادة الآخرة عبارة عن ارادة الله تعالى وثوابه ، فارادة الثواب لا تنافس ارادة الله .

والقسم الثالث : من يريد من الله ولا يريد الله ، فهذا ناقص غاية النقص ، وهو حال الجاهل بربه ، الذي سمع أن ثمة جنة ونارا ، فليس في قلبه غير ارادة نعيم الجنة المخلوق ، لا يخطر بباله سواه البتة . بل هذا حال أكثر المتكلمين المنكرين رؤية الله تعالى ، والتلذذ بالنظر الى وجهه في الآخرة ، وسماع كلامه وحبه ، والمنكرين على من يزعم أنه يحب الله ، وهم عبيد الاجرة المحضة ، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدس .

ومنهم من يصرح بأن ارادة الله محال ، قالوا : لأن الارادة انما تتعلق بالحادث . فالقديم لا يراد . فهؤلاء منكرون لارادة الله غاية الانكار ، وأعلى الارادة عندهم ارادة الاكل والشرب والنكاح واللباس في الجنة

---

(١) سورة الاسراء . آية ١٩ .
(٢) سورة آل عمران . ١٥٢ .

وتوابع ذلك . فهؤلاء في شق ، وأولئك الذين قالوا : لم نعبده طلبا لجنته ، ولا هربا من ناره ، في شق ، وهما طرفا نقيض ، بينهما أعظم من بُعد المشرقين .

وهؤلاء من أكثف الناس حجابا ، وأغلظهم طباعا ، وأقساهم قلوبا ، وأبعدهم عن روح المحبة والتأله ، ونعيم الارواح والقلوب ، وهم يكفّرون أصحاب المحبة والشوق الى الله والتلذذ بحبه ، والتصديق بلذة النظر الى وجهه وسماع كلامه بلا واسطة . وأولئك لا يعدونهم من البشر ، الا بالصورة ، ومرتبتهم عندهم مرتبة قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم، وهم عندهم في حجاب كثيف عن معرفة نفوسهم وكمالها، ومعرفة معبودهم وسر عبوديته . وحال الطائفتين عجب لمن اطلع عليه .

والقسم الرابع ـــ وهو محال ـــ أن يريد الله ولا يريد منه ، فهذا هو الذي يزعم هؤلاء أنه مطلوبهم ، وأن من لم يصل اليه ففي سيره علة ، وأن العارف ينتهي الى هذا المقام ، وهو أن يكون الله مراده ولا يريد منه شيئا ، كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال : قيل لي : ما تريد ؟ فقلت : أريد أن لا أريد .

وهذا في التحقيق عين المحال الممتنع عقلا وفطرة ، وحسا ومعنى ، فان الارادة من لوازم الحي ، وانما يعرض له التجرد عنها بالغيبة عن عقله وحسه ، كالسكر والاغماء والنوم ، فنحن لا ننكر التجريد عن ارادة ما سواه من المخلوقات التي تزاحم ارادتها ارادته . أفليس صاحب هذا المقام مريدا لقربه ورضاه ودوام مراقبته والحضور معه ؟ وأي ارادة فوق هذه ؟.

نعم قد زهد في مراد لمراد هو أجل منه وأعلى ، فلم يخرج عن الارادة، وانما انتقل من ارادة الى ارادة ، ومن مراد الى مراد ، وأما خلوه عن الارادة بالكلية مع حضور عقله وحسه فمحال . وان حاكمنا في ذلك محاكم الى ذوق مصطلم مأخوذ عن نفسه ، فان عن عوالمها ، لم ننكر ذلك ، لكن هذه

حال عارضة غير دائمة ، ولا هي غاية مطلوبة للسالكين ، ولا مقدورة للبشر. ولا مأمور بها ، ولا هي أعلى المقامات ، فيؤمر باكتساب أسبابها ، فهذا فصل الخطاب في هذا الموضع . والله سبحانه وتعالى أعلم » .

وفي مجال الحديث عن الارادة تتذكر الاثر السائر : « ان لله عبادا اذا أرادوا أراد » . واذا كان هناك من يشطح في تفسير هذا الاثر شطحا غير مقبول ولا معقول ، فنحن نفهمه على أن عباد الله الابرار يستجيبون لربهم ، ويتقيدون بأمره ، ويخضعون ارادتهم لارادته ، فلا يكون منهم الا ما يرضيه ، فكأن ارادة الله هي ارادتهم . ونحن نفهم هذا الفهم في ضوء الحديث القدسي المروي عن رب العزة جل جلاله ، وقد رواه البخاري في صحيحه ، وهو « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب اليّ عبدي بشيء أحب اليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وان سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا اكره مساءته » .

والمراد بالولي في هذا الحديث هو العالم بالله ، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته ، المريد لوجهه ، والمراد بالنوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها مكملة لها ، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة . ولقد أشار القشيري الى معنى التقرب حين قال : « قرب العبد من ربه يقع أولا بايمانه، ثم باحسانه ، وقرب الرب من عبده ما يخصه به في الدنيا من عرفانه ، وفي الآخرة من رضوانه ، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه » . ومثل هذا لا يريد الا ما يريده الله ، فارادته معلقة بارادة الله ، فاذا أراد فكأن الله أراد .

رزقنا الله استقامة الارادة وعلوها ، حتى لا نبعد عن حمى أولئك الابرار الاطهار .

الاشفاق

تقول لغة العرب ـ وهي لغة القرآن الكريم ـ : أشفق من الشيء خاف أن يناله منه مكروه . وأشفق على فلان : خاف أن ينزل به مكروه ، وعطف عليه عناية به . وأشفق عليه : خاف من حلول المكروه به ، مع نصح . والاشفاق عناية مختلطة بخوف ، لأن المشفِق يحب المشفَق عليه ويخاف ما يلحقه .

واذا قيل : « أشفق منه » فمعنى الخوف فيه أظهر ، واذا قيل : « أشفق فيه » كان معنى العناية فيه أظهر ، كما في قوله تعالى في سورة الطور :

« إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مشْفِقِينَ » [1] .

ويقال : أنا مشفق من هذا الامر ، أي خائف منه خوفا يرقق القلب ويبلغ منه . والشفقة هي الرحمة والرقة والخوف من حلول المكروه .

والاشفاق خلق من أخلاق القرآن الحكيم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وقد جاء ذكر الاشفاق في أكثر من آية كريمة ، وقد نوه

---

(١) سورة الطور ، آية ٣٦ .

القرآن بشأن الاشفاق حين جعله صفة من صفات الملائكة الذين هم عباد الله المكرمون ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا نفهم منه أن الاشفاق لا يقتضي أن يكون هناك ذنب يخاف منه صاحبه أو يهابه ، فالله جل جلاله يقول في سورة الانبياء عن الملائكة :

« يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » (١) .

أي خائفون من هيبته وجلاله ، وهم مشفقون مع أنهم ليس لهم ذنب، وهم بطبيعتهم خائفون لله ، مشفقون من خشيته ، على قربهم وطهارتهم ، وطاعتهم التي لا استثناء فيها ، ولا انحراف عنها .

وكذلك ذكر القرآن المجيد أن «الاشفاق » من صفات المتقين ، فقال في سورة الانبياء :

« الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْب وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» (٢)

أي : وهم من عذاب يوم القيامة وسائر ما يجري فيه من السؤال والحساب مشفقون ، فيعدلون بسبب هذا الاشفاق عن معصية الله تعالى ، وهم تستشعر قلوبهم خشية الله تعالى وهم لم يروه ، ويخافون الآخرة فيعملون لها ويستعدون ، وهؤلاء هم الذين ينتفعون بضياء الله ويسيرون على هداه .

ويقرر القرآن أيضا أن الاشفاق صفة للمسارعين في الخيرات وهم لها سابقون ، فيقول في سورة المؤمنين :

---

(١) سورة الانبياء ، ٢٨ .
(٢) سورة الانبياء ، الآية ٤٩ .

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ ، والَّذِين هُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنونَ ، والَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكونَ ، والَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوا وَقُلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعونَ ، أُولَئِكَ يُسَارِعونَ في الخَيْراتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقونَ » (١) .

وقد علق الفخر الرازي على هذه الآيات بقوله : « اعلم أنه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله : «أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات » ثم قال : « بل لا يشعرون » بيَّن بعده صفات من يسارع في الخيرات ويشعر بذلك ، وهي أربعة :

الصفة الاولى قوله : « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون » والاشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف ، فمنهم من قال : جمع بينهما للتأكيد ، ومنهم من حمل الخشية على العذاب . والمعنى : الذين هم من عذاب ربهم مشفقون . وهو قول الكلبي ومقاتل .

ومنهم من حمل الاشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة ، والمعنى : الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته ، جادّون في طلب مرضاته .

والتحقيق أن من بلغ في الخشية الى حد الاشفاق ــ وهو كمال الخشية ــ كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ، ومن عقابه آجلا ، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي » .

ثم تحدث الرازي عن الصفة الثانية وهي الايمان بآيات الله جل جلاله ، وعن الصفة الثالثة وهي عدم الاشراك بالله سبحانه ، ثم قال :

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥٧ ــ ٦١ .

«الصفة الرابعة» : قوله : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » .

معناه : يعطون ما أعطوا ، فدخل فيه كل حق يلزم ايتاؤه . سواء كان ذلك من حق الله تعالى ، كالزكاة والكفارة وغيرهما ، أو من حقوق الآدميين كالودائع والديون وأصناف الانصاف والعدل .

وبيَّن أن ذلك انما ينفع اذا فعلوه وقلوبهم وجلة ، لأن من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره ، واخلاله بنقصان أو غيره ، فانه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهدا في أن يوفيها حقها في الاداء .

وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » : أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق ، وهو على ذلك يخاف الله تعالى ؟!.

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يا ابنة الصدِّيق ، ولكن هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو على ذلك يخاف الله تعالى » .

واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحُسن ، لأن الصفة الاولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والصفة الثانية دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والصفة الثالثة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله سبحانه الوصول اليها » .

ويرى بعض المفسرين المعاصرين أن الآيات الكريمة السابقة فيها ابراز لصورة اليقظة والحذر في القلوب المؤمنة ، بعد ابراز صورة الغفلة والغمرة في القلوب الضالة ، فيسوق في تبيان ذلك العبارة التالية :

« من هنا يبرز أثر الايمان في القلب ، من الحساسية والارهاف والتحرج ، والتطلع الى الكمال ، وحساب العواقب ، مهما ينهض بالواجبات والتكاليف .

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى . وهم يؤمنون بآياته . ولا يشركون به ، وهم ينهضون بواجباتهم وتكاليفهم . وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا ، ولكنهم بعد هذا كله « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون » لاحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم . وهو في نظرهم قليل .

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : يا رسول الله ، « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق . وهو يخاف الله عز وجل » .

ان قلب المؤمن يستشعر فضل الله عليه . ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة ، ومن ثم يستصغر كل عباداته . ويستقل كل طاعاته . الى جانب آلاء الله ونعمائه . كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله ، ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل يشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه . لم يوفه حقه عبادة وطاعة . ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا .

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة . بهذه اليقظة . وبهذا التطلع . وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة . لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ، ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة . مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يستدرج الى مصرعه بالطعم المغري . ومثل هذا الطير في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويطغيهم الغنى ، ويلهيهم الغرور ، حتى يلاقوا المصير »ـ.

واذا كان أهل التفسير المعروف المألوف يسيرون في تبيان «الاشفاق» على ما رأينا من صور ، فان أهل التصوف يسلكون طريقهم الخاص بهم في تصوير هذه الصفة . فيقول القشيري مثلا : « أمارة الاشفاق من

الخشية اطراق السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد الادب ، ومحاذرة بغتات الطرد ، لا يستقر بهم قرار لما داخلهم من الرعب ، واستولى عليهم من سلطان الهيبة » .

* * *

والقرآن الكريم يذكر لنا أن فضيلة « الاشفاق » من صفات أهل الجنة المكرمين ، حيث يتحدث في سورة المعارج عن المصلين المخلصين المصدقين بيوم الدين ، فيقول عنهم :

« والَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » (١) .

وبعد أن يصفهم بحفظ فروجهم وأماناتهم وعهدهم ، وأنهم القائمون بشهاداتهم ، والمحافظون على صلواتهم ، يقول :

« أُولَئِكَ فِي جَنَاتٍ مُكْرَمونَ » (٢) .

وقوله : « من عذاب ربهم مشفقون » أي خائفون ، لأن هذا العذاب لا يأمنه أحد ، بل الواجب على كل أحد أن يخافه ويشفق منه . ويشير الرازي الى أن « الاشفاق » يكون من أمرين : اما بالخوف من ترك الواجبات ، أو الخوف من الاقدام على المحظورات . ومن يدوم به الخوف والاشفاق فيما كلف به يكون حذرا من التقصير ، حريصا على القيام بما كلف به من علم وعمل ، والانسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ، واحترز عن المحظورات بالكلية ، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك ، فلا جرم يكون خائفا أبدا .

ويتعرض التفسير المعاصر البصير الى الظلال القرآنية التي تستوحى

(١) سورة المعارج ، الآية ٢٧ .
(٢) سورة المعارج ، الآية ٣٥ .

من قوله تعالى عن « الاشفاق » :

« وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » [1] .

فيصورها بهذا التعبير : « هذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين ، درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة . والشعور بالتقصير في جناب الله على كثرة العبادة . والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة . والتطلع الى الله للحماية والوقاية » .

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله ، وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة الا بفضل من الله ورحمة . وقال لاصحابه : « لن يدخل الجنة أحدا عمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟. قال : « ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمته » .

وفي قوله هنا : « ان عذاب ربهم غير مأمون » ايحاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب ، والله لا يطلب من الناس الا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فاذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة ، وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق ، وهذا قوام الامر في الاسلام بين الغفلة والقلق ، والاسلام غير هذا وتلك ، والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال » .

ويقول القرآن الكريم في سورة الشورى عن الاشفاق من يوم القيامة :

---

(١) سورة المعارج : الآيات ٢٧ ـ ٢٨ .

« يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها . والَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّها الحَقُّ ، أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ في السَّاعَةِ لَفي ضَلالٍ بَعِيدٍ » (١) .

فالمؤمنون ـ كما يعبر القشيري ـ يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، ويكلون أمورهم الى الله ، فلا يتمنون الموت حذر الابتلاء، ولكن اذا ورد الموت لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له .

والذين لا يؤمنون بالساعة لا تحس قلوبهم هولها . ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ، فلا عجب يستعجلون بها مستهترين ، لأنهم محجوبون لا يدركون ، وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها . ومن هنا هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون ، وانها لحق ، وانهم ليعلمون انها الحق ، وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

ويشير القرآن المجيد الى أن فضيلة « الاشفاق » يجعلها الحق سبحانه سبب النجاة من النار ، وسبب الفوز بالنعيم ، فيقول في سورة الطور عن المؤمنين وهم في الجنة :

« وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ : قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ في أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فمنَّ اللهُ عَلَيْنا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » (٢) .

---

(١) سورة الشورى ، الآية ١٨ .
(٢) سورة الطور ، الآية ٢٥ ـ ٢٧ .

فالله تعالى قد أنجاهم لأنهم عاشوا بين أهليهم في اشفاق من هـذا اليوم . وخوف من لقاء ربهم . مع أنهم كانوا بين أهليهم وأحبابهم .

ان فضيلة « الاشفاق » القرآنية تعلم صاحبها اليقظة والحذر . والتنبه للواجب مع الحرص على أدائه . والابتعاد عن السوء قدر الامكان. وتعلمه أن يبذل أقصى ما في وسعه من طاعة وقربة . ثم لا يغتر ولا ينخدع. بل يظل على الدوام في خشية من التقصير ، وهيبة من الغفلة ، وخوف من النسيان ، فمهما بذل أو قدم ، يظل خاضعا لجلال ربه ، خاشعا من هيبته ، سائلا منه العفو والمغفرة والرضوان .

حسن الظن

تقول اللغة ان الظن هو ما يحصل عن أمارة ، وهو بهذا شك ، ولكنه قد يلحقه تدبر فيصير ضربا من اليقين، ولكنه دون يقين المعاينة، وقد تضعف الامارة فيكون الظن توهما ، وفي هذه الحالة يكون الظن مذموما ، واذا قويت أمارته وصار ضربا من اليقين ، فان الظن يكون محمودا حينذاك .

والظن في كثير من الامور مذموم كما يقول الاصفهاني ، وكل ما لا يوثق به فهو ظنين وظنون . والظن الحسن هو تغليب جانب الخير على جانب الشر ، وتجنب المسارعة بالاتهام دون برهان .

وقد قال العلماء ان حسن الظن بالله هو أن تظن أنه سيعفو عنك ، ويرحمك بواسع رحمته وأنت على طاعته ، وهذا لا يتعارض مع حذرك اذا كنت عاصيا . وحسن الظن بالناس هو أن تظن أنهم على خير ، وعلى هدى من ربهم فيما بينهم وبينه ، بل ربما كانوا عند الله أحسن منك ، وهذا في المسلمين المستورين ، وأما أهل العصيان والفسوق والاهواء الفاسدة والمجاهرين بالمعصية فلا يتأتى فيهم حسن الظن .

والقرآن الكريم قد عدّ حسن الظن في مواطنه خلقا من أخلاقه وفضيلة من فضائل المجتمع المؤمن ، فتحدث عن الظن الحسن بطريق التصريح حين قال من سورة النور وهو يتحدث عن حديث الافك :

« لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً » [1] .

وبطريق النهي عن الظن السيء الخبيث في أكثر من آية كما سنرى :

هاهوذا القرآن المجيد يقص علينا قصة الافك فيقول فيما يقول :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ . بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امرىءٍ مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، لَوْلاَ إِذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمِنونَ والمؤمِناتُ بِأَنْفُسِهِم خيراً وَقالوا : هذا إِفْكٌ مُبينٌ » [2] .

ان هذه الكلمات القدسية تحكي ما حدث من افك وافتراء على الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضوان الله عليهما ، وكان ذلك الافك ناشئا من سوء الظن المتعاون مع النفاق الوضيع . وتشير الآيات الى أن حسن الظن كان أولى وأجدر بالمسلمين ، وكان الواجب على كل من سمع هذا الافتراء القذر ان يرده قائلا : « هذا افك مبين » ، وذلك كما فعل أبو أيوب خالد بن زيد الانصاري وزوجته رضي الله عنهما ، فقد روت السيرة أن أبا أيوب قالت له زوجته : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضوان الله عليها ؟.

قال : نعم ، وذلك الكذب . ثم سألها : أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟.

---

(١) سورة النور ، الآية ١٢ .

(٢) سورة النور ، الآيتان ١١ و١٢ .

قالت : لا والله ما كنت أفعله .

فقال لها : فعائشة والله خير منك .

ويروى أيضا أن أبا أيوب قال لها عن حديث الافك : ألا ترين ما يقال ؟.

فقالت له : لو كنت بدل صفوان بن المعطل ـ وهو الصحابي الجليل الذي اتهموا به عائشة ـ أكنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا ؟.

قال : لا .

فقالت : ولو كنتُ أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعائشة خير مني ، وصفوان خير منك .

يا لروعة الظن الحسن الجميل في موطنه الاصيل الجليل .

❋ ❋ ❋

ويقول القرآن فيما يقول وهو يتحدث عن أحداث غزوة أحد في سورة آل عمران :

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنْ بعدِ الغمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ . وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُم أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ، يَقُولونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شيءٍ ، قُلْ إنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ في أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لكَ ، يَقولونَ لَوْ كانَ لَنَا مِنَ الأَمرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ها هُنا ،قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُم لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ

القَتْلُ إلى مَضاجعِهِمْ . وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا في قُلُوبِكُمْ . واللهُ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ »[1] .

فهنا يقارن الكتاب العزيز بين طائفة المؤمنين أهل الاخلاص والظن الحسن بالله ، الذين وهبهم الله سبب الأمن والطمأنينة . وطائفة أخرى سلط الله عليهم الازعاج والخوف ، وهم المشركون أو المنافقون الذين شغلتهم أنفسهم ، فهم يسيئون الظن . فيظنون بالله ورسوله غير الحق ظنّ الجاهلية . ويتوهمون أن الله لن ينصر رسوله ، ولذلك يتساءلون منكرين: هل لنا من النصر نصيب ؟ وقد قالوا ذلك على سبيل السخرية والتخذيل للمسلمين ، وكان من قائلي هذا عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه ، ومعتّب بن قشير وأصحابه ، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم : ان الامر كله بيد الله ، ينصر من يشاء . ويخذل من يشاء ، ولا خاذل لمن نصره ، ولا ناصر لمن خذله ، وربما عجل النصر ، وربما أخره لحكمة يعلمها ، وهو لا يخلف وعده ، ومن أوفى بعهده من الله ؟.

واذا كان القرآن يُفهمنا أن حسن الظن صفة المؤمنين ، فانه يخبرنا بأن الظن السيء صفة أعداء الله رب العالمين، ولذلك يخاطب الله جل جلاله أعداءه فيقول لهم فيما يقول في سورة فصلت :

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشهدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ . وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثيراً مِمَّا تعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ

---

(١) سورة آل عمران . الآية ١٥٤ .

أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخاسِرينَ »[1] .

فالقرآن المجيد يحمل هنا على الظن الاثيم من اعداء الله بربهم ، ويخبرنا بأن هذا الظن السيء هو الذي أهلك أصحابه ، وقادهم الى جهنم وبئس المصير .

ويوجه القرآن الخطاب الى الاعراب المتخلفين عن الجهاد تهاونا وكسلا وضعف ايمان ، فيقول لهم فيما يقول من سورة الفتح :

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَن يَنْقَلِبَ الرّسُولُ والمؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ، وَمَن لَمْ يُؤمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فإنّا اعْتَدْنا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً »[2] .

لقد فضحهم القرآن هنا وكشف أستارهم ، ووقفهم ـ كما يقول بعض المفسرين ـ وجها لوجه أمام ما أضمروا من نية ، وما ستروا من تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء ، وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون الى حتفهم ، فلا يرجعون الى أهليهم ، وقد ظنوا ظنهم ، وزين الشيطان هذا الظن الاثيم في نفوسهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا في سواه فصاروا بورا ، لا حياة لهم ولا خصب ولا اثمار .

ويقرر القرآن المجيد أن الظن السيء هو صفة المنافقين والمشركين ،

---

(١) سورة فصلت ، ٢٢ .
(٢) سورة الفتح ، آية ١٢ ، ١٣ .

فيقول في سورة الفتح :

« وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ والمُنَافِقَاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم وَلَعَنَهُمْ وأَعدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً »[1] .

ويعلق على هذه الآية بعض المفسرين فيقول : « وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله ، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما بتوقع الخير في السراء والضراء ، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين ، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله ، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدا ، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الاصيلة ، وأحسها احساس مباشرة . فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله ، وتتعلق قلوبهم بظواهر الامور ، ويبنون عليها أحكامهم ، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الامور توحي بهذا ، على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتدبيره الخفي اللطيف » .

ويقول القرآن في سورة الحجرات :

« يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بعضَ الظَّنِّ إِثْمٌ »[2] .

---

(١) سورة الفتح ، الآية ٦ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٢ .

فهذا أمر الهي باجتناب كثير من الظنون . حتى لا يتركوا أنفسهم نغرق فيما يهجس بداخلها من ظنون وشكوك . وكأن الآية الكريمة تنهى عن أن يتلوث الانسان بالظن السيء فيقع في الاثم . وتحث على أن يظل الانسان طاهر القلب نقي الصدر بريء الساحة . يطوي فؤاده على حسن الظن بالناس .

ولقد تحدث القرآن حديث التعريض بالذين يفتحون على أنفسهم باب الظن السيء بالله حتى في أشد الاحوال وأقسى الظروف . فذلك حيث يقول في سورة الاحزاب :

« إِذ جاءُوكُمْ مِن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا » .

ومن الواضح أن سوء الظن ــ دون موجب ــ يؤدي الى الاتهام المتعجل . وتتبع العورات . وتسقط الهفوات . والتجسس الدنيء . وغير ذلك من الآثام .



ولقد روى البخاري ومسلم في الحديث القدسي قول رب العزة : أنا عند ظن عبدي بي » أي قادر على أن أعمل به ما ظن اني عامل به ، وكأن هذه اشارة الى ترجيح جانب الامل والرجاء على جانب الخوف ، أو تغليب جانب حسن الظن على جانب سوء الظن .

وفي الحديث الصحيح : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ». أراد اياكم وسوء الظن وتحقيقه . أو أراد الشك يعرض للانسان في السيء فيحققه ويحكم به . ويروي أبو داود بسند صالح ان الرسول صلوات الله

وسلامه عليه قال : « حسن الظن من حسن العبادة » . فتحسين الظن بالناس يحفظه من بغضهم وحسدهم ، ولذا كان عبادة . كما أن سوء الظن بهم معصية . وأما سوء الظن بالله تعالى فكفر نعوذ بالله منه .

والشيطان يحاول دائما اثارة سوء الظن ، وتحريكه في نفس الانسان ليؤدي به الى المعاطب . والسنة المطهرة تخبرنا بذلك ، فقد روت أم المؤمنين صفية بنت حيي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد ، فذهبت اليه وتحدثت معه . فلما أمست انصرفت . فقام رسول الله يمشي معها . فمر بهما رجلان من الانصار . فسلما وانصرفا . فناداهما النبي وقال : « انها صفية بنت حيي » .

فقالا : يا رسول الله . ما نظن بك الى خيرا .

فقال : « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد ، واني خشيت أن يدخل عليكما » .

ويعلق الامام الغزالي على هذا الخبر بقوله في الاحياء : « فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما ، وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة ، حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله ، فيقول : مثلي لا يُظن به الا الخير ، اعجابا منه بنفسه، فان أروع الناس واتقاهم واعلمهم لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم ، وبعين السخط بعضهم ، ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء ، وعن تهمة الاشرار ، فان الاشرار لا يظنون بالناس كلهم الا الشر ، فمهما رأيت انسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب ، فاعلم أنه خبيث في الباطن ، وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وانما رأى غيره من حيث هو ، فان المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب

العيوب . والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق » .

ومن واجب المسلم أن يتذكر أن رسوله عليه الصلاة والسلام يدعو الى تغليب حسن الظن على سوء الظن ، وينهى عن تتبع الزلات وتطلب العورات . فيقول : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم، فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته » . بل لقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم وليّ الأمر عن أن يجعل سوء الظن أساس المعاملة للناس ، فقال : « ان الامير اذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » . أي لا ينبغي معاملتهم بالتهمة القائمة على سوء الظن فربما أفسدهم بذلك .

وكذلك جاء في الحديث : « اذا ظننت فلا تحقق » . وقد أشار الغزالي الى أن فتح باب الشر يأتي من طريق سوء الظن ، فقال : « فمن يحكم بشر على غيره بالظن ، بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك ، أو يقصر في القيام بحقوقه ، أو يتوانى في اكرامه ، وينظر اليه بعين الاحتقار ، ويرى نفسه خيرا منه ، وكل ذلك من المهلكات ، ولأجل هذا منع الشرع من التعرض للتهم » .

ولكن ... ليس معنى الدعوة الى حسن الظن أن يغفل المسلم عن حيل أعدائه ومكرهم وسوء سعيهم ، بل عليه أن يكون يقظا حذرا ، والقرآن الحكيم يقول في سورة النساء :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » (١) .

وفي الحديث : « احتجزوا من الناس بسوء الظن » أي لا تثقوا بكل أحد فانه أسلم لكم . وقد سبق لي ان تحدثت عن « الحذر » في الجزء

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧١ .

الثاني من كتابي « أخلاق القرآن » في احدى عشرة صفحة . وفي ضـوء الحذر قال القائل : « ظن المرء قطعة من عقله » . وجاء في المثل : « الحزم سوء الظن » . وجاء في الأثر : « الظنون مفاتيح اليقين » .

كما أن سوء الظن بالنفس الامارة بالسوء شيء محمود مطلـوب ، وفي القرآن المجيد في سورة يوسف :

« وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ رَبِّي » [1] .

وفي حديث علي : « ان المؤمن لا يمسي ولا يصبح الا ونفسه ظنون عنده » أي متهمة لديه .

وقد تحدث رجال التربية الروحية عن حسن الظن باللـه سبحانه ، فجعلوه من درجات التوكل ، وفي هـذا المجال يقول الامـام ابن القيم : « فعلى قدر حسن ظنك بربك ، ورجائك فيه ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن باللـه ... والتحقيق أن حسن الظن بـه يدعوه الى التوكل عليه ، اذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه » .

فلنحسن الظن حيث لا موجب لسوئه ، وليكن حسن ظننا بالله أول ما نلجأ اليه ونستمسك به ، ولنقل في صدق واخلاص مع من قال :

واني لأرجو اللـه حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع

نسأل الله تباركت آلاؤه أن يجعلنـا ممن يحسنون الظن بفضلـه وطوله انه أكرم مسؤول وأفضل مأمول .

---

(1) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

الصفح

تقول اللغة ان صفحة الشيء عرضه وجانبه ، كصفحة الوجه وصفحة السيف ، وصَفَحَ عن فلان : أعرض عنه ، وولاه قفاه اهمالا . وصفح عن ذنبه : أعرض عن مؤاخذته ، أو أولاه صفحة جميلة ، والوصف صَفوح . والصفح ترك التثريب . ويقول الطبرسي ان قولهم : « صفحت عنه » فيه قولان : أحدهما أن معناه أني لم آخذه بذنبه وأبديت له مني صفحة جميلة ، والآخر أنه لم ير مني ما يقبض صفحته .

والصَّفوح : الكريم ، لأنه يصفح عمن جنى عليه ، وأما الصفوح فيما يتعلق بالله تعالى فقد جاء في السنة أنه صفة من صفاته عز وجل ، ومعناه أنه العَفُوّ عن ذنوب عباده ، المعرض عن عقوبتهم تكرما ، والصفح خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من صفة الرسول عليه الصلاة والسلام . والغالب على استعمال القرآن للصفح هو معنى الاعراض عن الذنب ، والصلة بين المعنى اللغوي للصفح والمعنى الاخلاقي هو أن قولهم : صفحت عنه معناه أوليته مني صفحة جميلة معرضا عن ذنبه ، أو لقيت صفحته متجافيا عنه ، أو تجاوزت الصفحة التي أثبتّ فيها ذنبه من الكتاب الى غيرها ، من قولك : تصفحت الكتاب .

والصفح يذكّرنا بالعفو ، والكثير من الناس يظنون العفو والصفح

شيئا واحدا ، حتى ان الطبرسي في « مجمع البيان » يقول : « الصفح والعفو والتجاوز بمعنى » . ولقد كتبت عن خلق « العفو » في الجزء الاول من كتابي « أخلاق القرآن » على أساس ان الصفح غير العفو ، لأن الصفح أبلغ من العفو وأعلى منه درجة ، فقد يعفو الانسان ولا يصفح . ولذلك جاء في « مفردات القرآن » : الصفح أبلغ من العفو ، ولذلك قال القرآن الكريم : « فاعفوا واصفحوا » ويقول القرطبي : العفو ترك المؤاخذة بالذنب ، والصفح ازالة أثره من النفس . وفي « تفسير المنار » العفو ترك العقاب على الذنب ، والصفح الاعراض عن المذنب بصفحة الوجه ، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب .

ومن شرف فضيلة الصفح أن الله تبارك وتعالى أمر بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقال له في سورة الزخرف :

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمونَ » [1] .

فقد أمره ربه بأن يصفح عنهم ، وفي ضمن ذلك منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب ، بل يرجو لهم الهداية والرحمة ، وأمره بأن يقول لهم : سلام .

يقول ابن كثير في الآية : « فاصفح عنهم : أي المشركين . وقل سلام: أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا . فسوف يعلمون : هذا تهديد من الله تعالى لهم . ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب » .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٩ .

ويقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام في سورة الحجر :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والأَرضَ وَمَا بَيْنَهُما إلاَّ بالحَقِّ وَإِنَّ السَّاعةَ لآتِيةٌ فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَميلَ » [1] .

والصفح الجميل هو أبلغ ألوان العفو ، وهنا أمر للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يخفّف على نفسه كفر من كفر ، كما قال تعالى :

« ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ في ضِيقٍ مِّمّا يَمْكُرُونَ » .

ويقول القرآن الكريم في سورة البقرة :

« وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعدِ إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [2] .

أي : لقد تمنى اليهود لو استطاعوا أن يجعلوكم كفارا بعد أن عرفتم الايمان ، وذلك بسبب حسدهم لكم ، ومن تلقاء أنفسهم ، اذ لم يأمرهم الله بذلك ، ولم يجدوه في كتاب من عند الله ، وقد ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم الحق ، وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الذي جاء به من عند الله ، فاعفوا عنهم وأعرضوا حتى يأتي الله بالنصر ، ان الله على كل شيء قدير .

ولقد جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول

(١) سورة الحجر ، الآية ٨٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٩ .

الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة مذكية وأسامة وراءه ، يعود سعد بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبدالله بن أبي بن سلول ، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبي ، فاذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الاوثان واليهود وفي المسلمين عبدالله بن رواحة .

فلما غشيت المجلس عجاجةُ الدابة (الغبار) غطّى ابن أبي أنفه بردائه وقال : لا تغبّروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل . فدعاهم الى الله تعالى . وقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبدالله بن أبي ابن سلول : أيها المرء ، لا أحسن مما تقول ان كان حقا ، فلا تؤذنا في مجالسنا ، ارجع الى رحلك (منزلك) فمن جاءك فاقصص عليه .

قال عبدالله بن رواحة : بلى يا رسول الله ، فاغشنا في مجالسنا ، فانا نحب ذلك .

فاستب المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون (يقتتلون) فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفّضهم (يهدئهم) حتى سكنوا.
ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له : يا سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حُباب ؟ — يعني عبدالله بن أبي — قال كذا وكذا .

فقال سعد : أي رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، اعف عنه واصفح ، فوالذي أنزل عليك الكتاب بالحق ، لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة (المدينة) على أن يتوّجوه ويعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك (اغتاظ) فذلك فعل ما رأيت .

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفح .

ولنلاحظ أن الآية الكريمة السابقة قد قالت : « فاعفوا واصفحوا » ولم تقل « فاعفوا واصفحوا عنهم » وذلك لارادة عموم العفو والصفح ــ والله أعلم بمراده ــ أي عاملوا جميع الناس بالعفو والصفح ، فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين ، ما لم يكن ذلك على حساب الدين أو كرامة المسلمين .

وقد يقال : كيف يأمر الله تعالى المسلمين بالعفو والصفح عن أهل الكتاب وقد كان المسلمون يومئذ قلة ؟. ويتولى الاستاذ الامام محمد عبده الرد على هذه الشبهة ، فيقول : « في أمره تعالى لهم بالعفو والصفح اشارة الى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة ، لأن الصفح انما يطلب من القادر على خلافه ، كأنه يقول : لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم ، فانكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، فعاملوهم معاملة القوي العادل للقوي الجاهل .

وفي انزال المؤمنين على ضعفهم منزل الاقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، ايذانا بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الالهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فان الحق هو الذي يصرع الباطل » .

* * *

ويقول الله عز وجل في سورة المائدة :

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فاعْفُ

عَنْهُمْ واصْفَحْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »[1] .

والمعنى : أنهم بسبب نقضهم العهد والميثاق لعنهم الله وأبعدهم عن رحمته ، وجعل قلوبهم قاسية صلبة ، لا تعي خيرا ولا تفعله ، وهم يبدلون الكلام ويحرفون معناه ، ونسوا عهدهم الذي أخذه الانبياء عليهم من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنت يا رسول الله لا تزال تطلع على خيانة منهم وفجور ، الا قليلا منهم لم يخونوا ، فاعف عنهم واصفح ما دام بينك وبينهم عهد وهم أهل ذمة .

ويقول ابن كثير هنا : « وهذا هو عين النصر والظفر . كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك ، بمثل أن تطيع الله فيه . وبهذا يحصل لهم جمع تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله أن يهديهم . ولهذا قال الله تعالى : ان الله يحب المحسنين ، يعني به الصفح عمن اساء اليك » .

ويقول الله عز شأنه في سورة التغابن :

« يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا إنَّ مِن أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فاحْذَرُوهُمْ ، وإن تَعْفُوا وتَصفَحُوا وتَغفِرُوا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[2] .

قيل ان الآية الكريمة نزلت في بعض المسلمين الذين كانوا اذا أرادوا الخروج للجهاد بكى أولاده وأهله وقالوا له : الى من تدعنا ؟. فيرق فيقيم.

وقيل : نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فأبى أولادهم وزوجاتهم ، فلما أتوا

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٣ .
(٢) سورة التغابن ، الآية ١٤ .

النبي رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهمّوا بمعاقبة أولادهم وأهلهم . فأنزل الله قوله :

« وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».

ويقول الله جل علاه في سورة النور :

« ولا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُم والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلي القُرْبَى والمَساكينَ والمُهَاجِرِينَ في سبيلِ اللهِ ولْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ واللهُ غَفورٌ رحيمٌ » .

جاء في تفسير « مفاتيح الغيب » للرازي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق حيث حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة ، وهو ابن خالة أبي بكر ، وقد كان يتيما في حجره ، وكان ينفق عليه وعلى قرابته ، فلما جاءت قصة الافك قال لهم أبو بكر : قوموا فلستم مني ولست منكم ، ولا يدخلن عليّ أحد منكم .

فقال مسطح : أنشدك الله والاسلام ، وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا الى أحد ، فما كان لنا في أول الامر من ذنب .

فقال لمسطح : ان لم تتكلم فقد ضحكت .

فقال : قد كان ذلك تعجبا من قول حسان .

فلم يقبل أبو بكر عذره ، وقال : انطلقوا ايها القوم ، فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا .

فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض ، فبعث

(١) سورة النور ، الآية ٢٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبي بكر يخبره بأن الله تعالى قد أنزل عليه آيات ينهاه فيها عن اخراجهم ، فكبر أبو بكر وفرح ، وقرأ الرسول عليه ما نزل ، فلما بلغ قوله تعالى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » قال أبو بكر : بلى يا رب اني أحب أن يغفر لي ، وقد تجاوزت عما كان .

وذهب أبو بكر الى بيته، وأرسل الى مسطح وأصحابه ، وقال : قبلتُ ما أنزل الله على الرأس والعين ، وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم ، أما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم .

وجعل لمسطح ضعف ما كان له قبل ذلك .

ونفهم من الآية الكريمة أن أهل الفضل في الدين والخُلق لا يقصرون في الاحسان الى المسلمين ، فهم أهل سماحة وصفح ، ونرى أن الله تبارك وتعالى حينما أمر أبا بكر بالاعطاء لقبه بأولي الفضل والسعة ، كأنه سبحانه يقول له : أنت أفضل من أن تقابل اساءته بمثلها ، وأنت أوسع قلبا من أن تقيم للدنيا وزنا ، فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الاساءة ، وهذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين .

ويعلق الرازي على قوله : « وليعفوا وليصفحوا » فيقول ان العفو قرينة التقوى ، وكل من كان أقوى في العفو كان أقوى في التقوى ، ومن كان كذلك كان أفضل لقول الله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . والعفو والتقوى متلازمان وقد اجتمعا في أبي بكر ، أما التقوى فلقوله سبحانه : «وسيجنبها الأتقى» وأما العفو فلقوله : «وليعفوا وليصفحوا».

ولقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم « فاعف عنهم واصفح » وقال في حق أبي بكر : « وليعفوا وليصفحوا » فهذا يدل على أن أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الاخلاق حتى في العفو والصفح .

ولذلك قالت الآية : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » هكذا بصيغة الجمع على سبيل التعظيم .

وقد علق الله غفرانه على اقدام أبي بكر على العفو والصفح . وقد حصل فترتب الجزاء على الشرط فتحققت المغفرة لأبي بكر . وقوله : «يغفر الله لكم » بصيغة المستقبل ، وهو غير مقيد بشيء دون شيء . فدلت الآية على أنه سبحانه قد غفر لابي بكر في مستقبل عمره على الاطلاق . فكان من هذا الوجه ثاني اثنين للرسول عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . وكان هذا دليلا على صحة امامته رضي الله عنه . يقول الرازي : فان امامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورا له على الاطلاق ، ودليلا على صحة ما ذكره الرسول في خبر بشارة العشرة بأن أبا بكر في الجنة .

ويقول القرآن في سورة الزخرف :

« أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ » (١) .

والمعنى : أفنعرض اعراضا عن أن نذكركم من أجل اسرافكم على أنفسكم في كفركم ؟. يقال : ضربت عن فلان صفحا ، اذا أعرضت عنه وتركته .

وقيل ان المعنى على سبيل التهديد ، أي أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرناكم به ؟.

ولكن قتادة يفهم من الآية فهما دقيقا يعبر عنه بقوله : « والله لو أن

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٥ .

هذا القرآن رُفع حين ردته أوائل هذه الامة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته ، فكرره عليهم ودعاهم اليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك » .

ويعلق ابن كثير على فهم قتادة بقوله : « وقول قتادة لطيف جدا ، وحاصله أنه يقول في معناه : انه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم الى الخير والى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وان كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل أمر به ليهتدي به من قدّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته » .

وكأن المعنى : انا لا نترككم مع سوء اختياركم ، بل نذكركم ونعظكم الى أن ترجعوا الى طريق الحق .

* * *

وننتقل الى روضة السنة المطهرة .

وفيها نجد وصف الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه يعفو ويصفح ، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن : « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » قال : في التوراة : « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للاميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالاسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا اله الا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

وجاء في السنة من صفةالنبي : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حليما رحيما ، رؤوفا عطوفا ، يهب ويسمح ، ويعفو ويصفح » .

* * *

ولقد وصفت السيدة عائشة أباها أبا بكر بأنه « صَفُوح عن الجاهلين » أي كثير الصفح والتجاوز عنهم .

وكذلك رُوي أن معاوية قال لابنه : « عليك بالحلم والاحتمال، حتى تسكنك الفرصة ، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح ، فانه يدفع عنك مضلات الامور ، ويوقيك مصارع المحذور » .

وقال المأمون : « وجدتُ المسيء اليّ عبدا لله ، ولو أساء اليّ عبد لأخ لصفحت عنه اكراما له ، فكيف لا أصفح عن عبد مسيء هو عبد لله » ؟.

وهكذا توالت الكلمات المشرقة المضيئة على ألسنة الأعلام الحكماء، تمجد الصفح وتنوه بشأنه ، ولم يقتصر هذا على النثر ، بل زان روضة الشعر ، ففي الشعر العربي نماذج كثيرة قيلت في الصفح والتمدح به والدعوة اليه ، فهذا أحد الشعراء يقول في انسان يمدحه :

صفوح عن الاجرام ، حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى ... اذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

وهذا ثان يحبب في الصفح ، فيقول :

أتيتُ ذنبا عظيما ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك ، أو لا ... فامنن بصفحك عنه

وهذا ثالث يتغنى بمدح من تعود الصفح فيقول :

فدهره يصفح عن قدرة ... ويغفر الذنب على علمه
كأنه يأنف من أن يرى ... ذنب امرىء أعظم من حلمه

وهذا رابع يقول في صفوح آخر :

يعفو عن الذنب العظيم ... وليس يُعجزه انتصاره

صفحا عن الباغي عليه وقد أحاط به اعتذاره

وهذا شاعر يعاهد نفسه أن يصفح دائما فيقول :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وان عظمت منه عليَّ الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة شريف ، ومشروف ، ومثلي مقاوم
فأما الذي فوقي فاعرف فضله وأتبع فيه الحق ، والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال منكرا صفحت له عنه وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفا تفضلتُ ، ان الفضل بالحلم حاكم

وهذا شاعر يصور العفو والصفح تصويرا حلوا جذابا فيقول :

العفو يعقب راحة ومحبة والصفح عن ذنب المسيء جميل

ليتنا نتذكر قول ربنا جل جلاله :

« ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فإِذا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَما يُلَقَّاها إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلا ذو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

وقول خالقنا عز شأنه :

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

الاعتصام بالله

كلمة « الاعتصام » مأخوذة من « العصمة » بمعنى الحفظ والمنع ، وعصمه : منعه وصانه ووقاه ، واعتصم واستعصم : استمسك ، والاعتصام : الاستمساك والتحصن بما يعصم ويمنع من المحذور والمخوف.

والاعتصام بالله خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم . وقد تحدث كتاب الله تعالى عن هذه الفضيلة في أكثر من موطن ، وجعلها طريق النجاة والسعادة ، وأمر بها أتباع دينه ، فنراه في سورة آل عمران يقول :

« وَكَيْفَ تَكْفُرونَ وأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، يا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمونَ ، واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً وَلا تَفَرَّقُوا ، واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُم أعداءً فَأَلَّفَ بينَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخواناً ،

وكُنْتُمْ على شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » [1] .

هنا يتحدث القرآن الكريم على طريقة التعجب والانكار ، فيقول لهم : كيف تنحرفون عن الايمان ، وأنتم تسمعون القرآن العظيم يتلى عليكم ، وفيكم رسول الله محمد ، ترونه وتشاهدونه .

ويدخل في هذا الخطاب من لم ير النبي ، لأن ما فيهم من سنته يقوم مقام رؤيته . ويجوز أن يكون الخطاب لصحابة النبي خاصة ، لأن رسول الله كان فيهم وكانوا يشاهدونه . وقيل : ان هاهنا أمرين جليلين : كتاب الله ونبي الله ، فأما النبي فقد مضى الى ربه ، واما كتاب الله فباق قائم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . وقد أبقاه الله رحمة منه ونعمة، فيه بيان الحلال والحرام ، والطاعة والمعصية .

ومن يعتصم بالله ، ويتمسك بدينه وطاعته ، فقد وفقه ربه ، وأرشده الى الصراط المستقيم ، ثم أمر الله المؤمنين بأن يتقوه حق تقواه ، بأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يُشكر فلا يكفر ، وأن يجاهد المؤمن في سبيل ربه حق الجهاد ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وأبنائهم . ويا لها من تقوى مثالية ، ولذلك تلطف الله بعباده ، فقال في مقام آخر : « فاتقوا الله ما استطعتم » . وأمرهم كذلك أن يعتصموا جميعا بحبل الله ، وهو القرآن ، أو الدين ، أو الجماعة ، أو عهد الله ، أو طاعة الله ، وحذرهم التفرق والتمزق لأن الفرقة هلكة ، والجماعة نجاة ، وابن المبارك يقول :

ان الجماعة حبل الله فاعتصموا　　　منه بعروته الوثقى لمن دأبا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠١ ــ ١٠٣ .

واذا كانت آراء المفسرين قد تعددت في المراد بحبل الله هنا ، فان للاستاذ الامام محمد عبده عبارة يقرر فيها أن الأشبه بأسلوب القرآن الجليل أن تكون العبارة تمثيلا ، كأن الدين في سلطانه على النفوس ، واستيلائه على الارادات ، وما يترتب على ذلك من جريان الأعمال على حسب هديه ــ حبل متين يأخذ به الآخذ فيأمن السقوط ، كأن الآخذين به قوم على مكان مرتفع من الارض يُخشى عليهم السقوط منه ، فأخذوا بحبل متين ، جمعوا به قوتهم فامتنعوا من السقوط .

ويقول السيد رشيد رضا : « ان المختار هو ما ورد في الحديث المرفوع من تفسير حبل الله بكتابه ، ومن اعتصم به كان آخذا بالاسلام ، ولا يظهر تفسيره بالجماعة والاجتماع ، وانما الاجتماع هو نفس الاعتصام ، فهو يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه ، عليه نجتمع ، وبه نتحد . لا بجنسيات نتبعها ، ولا بمذاهب نبتدعها ، ولا بمواضعات نضعها ، ولا بسياسات نخترعها ، ثم نهانا عن التفرق والانفصام ، بعد هذا الاجتماع والاعتصام ، لما في التفرق من زوال الوحدة ، التي هي معقد العزة والقوة ، وبالعزة يعتز الحق فيعلو في العالمين ، وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات المواثبين وكيد الكائدين .

فهذا الامر والنهي في معنى الامر والنهي في قوله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » فجعل الله هو صراطه وسبيله » .

ويؤكد القرطبي أن الله تعالى قد أوجب علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه ، والرجوع اليهما عند الاختلاف ، وأمرنا الله بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملا ، وذلك سبب اتفاق الكلمة ، وانتظام الشتات الذي تتم به مصالح الدنيا والدين .

وينبغي أن تتذكر أن فضيلة « الاعتصام » قد تكون فضيلة فردية

حين يتمسك صاحبها بالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، يتقيد بهما ، ويسير على ضوئهما ، ويستمد منهما ، وقد تكون فضيلة جماعية حين يلتقي أبناء القرآن وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام فيعتصمون بالقرآن والسنة يتخذونهما اماما لهم في أمور دينهم وأمور دنياهم .

ويقرر ابن القيم في « مدارج السالكين » أن الاعتصام نوعان : الاعتصام بحبل الله ، والاعتصام بالله ، والاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته ، مراقبا لأمره ـ كما يعبر الهروي ـ والاعتصام بالله هو التوكل عليه ، والاحتماء به ، وهو الترقي عن كل موهوم ، أي عن كل ما سوى الله تعالى .

يقول ابن القيم : « فأما الاعتصام بحبله فانه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به يعصم من الهلكة ، فان السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده ، فهو محتاج الى هداية الطريق والسلامة فيها ، فلا يصل الى مقصده الا بعد حصول هذين الامرين له ، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وأن يهديه الى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الطريق ، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح ، والمادة التي يستلئم بها في طريقه» .



ويقرر كتاب الله في آية اخرى أن المعتصمين بالله يحشرهم ربهم مع المؤمنين المجزيين بأحسن الجزاء فيقول في سورة النساء :

« إِنَّ المنافقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ منَ النّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ، إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ

وأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولئِكَ مَعَ المؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ المُؤْمِنِينَ أَجراً عَظِيماً »[1] .

فالله جل جلاله قد استثنى هنا المعتصمين به من بين المنافقين ، ووعد هؤلاء المعتصمين بالاجر العظيم مع المؤمنين التائبين المصلحين المخلصين ، والاعتصام بالله انما يكون بالتمسك بكتابه ، والتخلق بأخلاقه وآدابه ، والاعتبار بمواعظه ، والرجاء في وعده ، والخوف من وعيده .

ويقول القرآن في سورة النساء أيضا :

« يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِن رَبِّكُمْ وأَنْزَلْنَا إلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ، فأَمَّا الَّذِين آمنوا باللهِ واعْتَصَمُوا بهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ في رحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِم إلَيهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً »[2] .

وهذه الكلمات الربانية تفيدنا أن المتحلين بفضيلة الاعتصام بالله هم أهل الرحمة والفضل والهداية الى الصراط المستقيم ، فالله جل جلاله يقول للناس انه قد جاءكم برهان من عند ربكم وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن معه البرهان وهو المعجزة والحجة ، وأنزل اليكم نورا مبينا وهو القرآن ، فيه تفصيل الاحكام ، فالذين آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن . هم أهل الرحمة والفضل والاهتداء .

وفي تفسير المنار : « فالذين يهتدون بهذا القرآن يدخلهم الله تعالى

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٧٤ ، ١٧٥ .

في رحمة خاصة منه ، لا يدخل فيها سواهم ، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم . ويدل على هذا التخصيص تنكير الفضل والرحمة ، ورحمة الله وفضله غير محصورين . ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما.

وقد فُسرت الرحمة هنا بالجنة . والفضل بما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء . كما قال في آية اخرى « ويزيدهم من فضله » .

ويمكن أن يفسَّرا بما هو أعم من نعيم الآخرة جزاء وزيادة ، فيشملا ما يكون لأهل الاعتصام بالقرآن — الذي هو حبل الله المتين — من الخصوصية في الدنيا ، اذ يكونون رحمة للناس بعلومهم وأعمالهم وفضائلهم . ويهديهم اليه صراطا مستقيما : أي ويهديهم تعالى هداية خاصة موصلة اليه ، صراطا مستقيما ، أي طريقا قويما قريبا ، يبلغون به الغاية من العمل بالقرآن . أما في الدنيا فبالسيادة والعزة والكمال ، وأما في الآخرة فبالجنة والرضوان . فهذا الصراط المستقيم لا يهتدى اليه الا بالاعتصام بالقرآن الكريم .

فيا خسارة المعرضين ، ويا طوبى للمعتصمين . وقد صدق وعد الله للصادقين . ففاز من اعتصم من الاولين . وخاب وخسر من أعرض من الآخرين . فعسى أن يعتبر بذلك المنتمون في هذا العصر الى هذا الدين »!.

ويقول القرآن في ختام سورة الحج :

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

واعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصِيرُ » (١) .

أي اعتصموا بدلائله العقلية والسمعية ، وألطافه وعصمته . وقال ابن عباس : سلوا الله العصمة عن كل المحرمات . وقال القفال : اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون . هكذا نقل الرازي .

* * *

ويقول الله تعالى في سورة المائدة :

« يَا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّكَ وإنْ لم تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ منَ النّاسِ إنَّ اللهَ لا يهدِي القَوْمَ الكافِرينَ » (٢) .

أي : يا أيها الرسول ، أظهر تبليغ الدعوة الى الناس ، ولا تكتف بالدعوة خفية وسرا ، وبلّغ جميع ما أنزل اليك من ربك ، فان كتمت منه شيئا فما بلغت رسالته . وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : « من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحي فقد كذب » . ثم أخبر الله تعالى رسوله بأنه سيعصمه ويحفظه من الناس . ويا لها من بشرى .

ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان نائما ، فجاء أعرابي ، ورفع السيف عليه ، ثم قال للرسول : من يعصمك مني الآن ، فأجابه الرسول قائلا : الله . فسقط السيف من يد الاعرابي ، فتناوله الرسول وقال للاعرابي : من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ . فعفا عنه الرسول، فعاد الرجل الى قومه يقول لهم : « جئتكم من عند خير الناس » .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

وعصمة الله للانبياء هي حفظهم أولا بما خصهم الله به من صفاء الجوهر ، ثم بما أولاهم من الفضائل الحسية والنفسية ، ثم بالنصر وتثبيت الأقدام ، ثم بانزال السكينة عليهم ، وبحفظ قلوبهم ، وبالتوفيق . هكذا ذكر الاصفهاني في « مفردات القرآن » .

ومع ما من الله به على رسوله من العصمة ، كان عليه الصلاة والسلام يدعو ربه بمثل قوله : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري » وقوله : « اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم » وقوله : « واعصمني فيما بقي من عمري » .

ولقد عني سيدنا رسول الله بفضيلة الاعتصام بالله وما تفيضه على صاحبها المخلص فيها من الصيانة والرعاية ، وقد روى البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله » .

أي المعصوم من وقاه ربه وحماه من الوقوع في الهلاك أو ما يجر اليه ، وقال ابن حجر في « فتح الباري » ان عصمة الله للانبياء عليهم الصلاة والسلام هي حفظهم من النقائص ، وتخصيصهم بالكمالات النفسية، والنصرة والثبات في الامور ، وانزال السكينة عليهم . والفرق بينهم وبين غيرهم أن العصمة في حق الانبياء بطريق الوجوب ، وفي حق غيرهم بطريق الجواز .

ويعلمنا القرآن أن التجاءنا الى الله ، واعتمادنا عليه ، واستمدادنا منه ، هو المفتاح لعصمته لنا ، ولا نجاة لنا دون هذه العصمة الواقية منه ، ولذلك يقول سبحانه في سورة الاحزاب :

« قُلْ مَنْ ذَا الذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمةً ، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِياً ولا نَصيراً »[1] .

وقريب من هذا قوله في سورة يونس :

« ما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِم »[2].

وقوله في سورة غافر :

« يومَ تُوَلُّونَ مُدْبِرينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِن عاصِمٍ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هَادٍ »[3] .

وقوله في سورة هود :

« قالَ سَآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُني مِنَ الماءِ قالَ لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمرِ اللهِ إلاَّ مَن رحِمَ وَحالَ بيْنَهُما المَوْجُ فكان مِنَ المُغْرَقِينَ »[4] .

وقد أكد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن باب الاعتصام بالله هو الاعتصام بكتابه ، فقد قال : « ان هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة لمن تمسك به ، ونجاة من اتبعه » . وقال : « فاعتصموا بحبل الله ، فان حبل الله هو القرآن » . وقال :

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ١٧ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٢٧ .
(٣) سورة غافر ، الآية ٣٣ .
(٤) سورة هود ، الآية ٤٣ .

« واني قد تركت فيكم ما لن تضلوا به ان اعتصمتم به : كتاب الله » ، وقال: « ان الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال » .

وأعطانا القرآن موقفا رائعا من مواقف الاعتصام بالله ، والاستمساك بحبله وحماه ، وهو موقف يوسف الصديق عليه السلام ، حين تواطأت عليه قوى الاغراء المتجبر ، فأبى واستعصم ، يقول القرآن في سورة يوسف :

« وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحسنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ ،وَلَقَدْ هَمَّت بهِ وَهَمَّ بِها لَوْلاَ أَن رأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحشاءَ إِنَّهُ من عبادِنا الْمُخْلَصِينَ » (١) .

ويقول أيضا :

«وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عنْ نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ ولَئِن لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ، قَالَ ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِليهِ وإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجاهِلينَ ، فاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرفَ عَنْهُ

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٣ و ٢٤ .

كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ » [1] .

ومعنى قوله : « فاستعصم » هو أنه طلب ما يعتَصم به من الاستجابة وركوب الفاحشة ، أي تحرى ما يعصمه ، فلم يجد أمامه الا الاعتصام بالله والالتجاء الى حماه .

وللصوفية حديث طويل عن الاعتصام بالله ، على طريقتهم الخاصة بهم ، فهذا هو ابن القيم في « مدارج السالكين » ينقل عنهم انهم يجعلون الاعتصام بالله ثلاث درجات :

الاولى اعتصام عامة الناس بالخبر الوارد عن الله عز وجل ، اذعانا وايمانا وانقيادا واستسلاما ، دون شك أو تردد أو منازعة ، والدرجة الثانية أعلى منها وهي اعتصام الخاصة ، وهو أن تنقطع النفس عن أغراضها ، ولا تريد غير الله جل جلاله ، والدرجة الثالثة وهي أعلى الدرجات عندهم ، وهو اعتصام خاصة الخاصة ، وهو أن يشهد الانسان ربَّه وحده منفردا ولا شيء معه .

اللهم هبنا نعمة الاعتصام بك ، والاعتماد عليك .

---

(1) سورة يوسف ، الآية ٣٢ و٣٣ .

الفرح بفضل الله

الفرح هو أن يجد الشخص خفة في قلبه . فينشرح صدره ، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية عند العامة . ولكن أحرار العقلاء يجدون لذة أخرى وسرورا أعلى في الامور المعنوية والروحية . وليس هناك أبهى ولا أعلى من الفرح بفضل الله وخيره . ولذلك جعل القرآن الكريم «الفرح بفضل الله» فضيلة من فضائله . وخلقا من أخلاقه ، وقد نوّه الامام ابن القيم بالاثر العميق للفرح في نفس الانسان فقال : « الفرح أعلى أنـواع نعيم القلب ولذته وبهجته ، والفرح والسرور نعيمه ، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضى به ، فان الرضى طمأنينة وسكون وانشراح ، والفرح لذة وبهجة وسرور ، فكل فَرِح راض ، وليس كل راض فَرِحا ، ولهذا كان الفرح ضد الحزن ، والرضى ضـد السخط ، والحزن يؤلـم صاحبه . والسخط لا يؤلمه ، الا ان كان مع العجز عن الانتقام » .

ومن جلال صفة الفرح الحق انه صفة كمال ، ولهذا يوصف الله جل جلاله بأعلى أنواعه وأكملها ، وقد حدثنا الحديث بأن فرحة الله تعالى بتوبة العبد التائب أعظم من فرحة الواجد لناقته التي عليها طعامه وشرابه ، في الارض المهلكة بعد فقده لها ، ويأسه من حصوله عليها . والفرح هاهنا كناية عن الرضى وسرعة القبول وحسن الجزاء ، لتعذر اطلاق ظاهر الفرح على الله

سبحانه وتعالى .

ومن حديث القرآن الكريم عن الفرح نستطيع ان نفهم بصفة عامة ان الفرح في القرآن نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق يأتي في مواطن الذم له والنهي عنه والتحذير منه ، كقوله :

« لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ » (١)

والمقيد اذا قيِّد بالدنيا فهو أيضا مذموم ، لأنه يجعل صاحبه ينسى فضل الله ومننه ، كقوله في سورة الانعام :

« حتَّى إذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإذا هُمْ مُبْلِسُون » (٢) .

أي يائسون أو مكتئبون . واذا كان مقيدا بفضل الله ورحمته فهو محمود مطلوب كقوله في سورة يونس :

« قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ مما يَجْمَعُونَ » (٣) .

وهذا النوع من الفرح بفضل الله هو الفضيلة الاخلاقية القرآنية ، التي تجعل صاحبها يتسامى عن خسائس الالوان من الفرح ، ويأخذ نفسه بالاقبال على الله ، والفرح بما يأتيه عن ربه من فضل وخير ورحمة .

ان الله تبارك وتعالى يقول :

---

(١) سورة القصص ، الآية ٧٦ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ٤٤ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٥٨ .

« قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

أي بهذا الذي جاءهم من الله تعالى من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فانه أولى ما يفرحون به ، وهو أفضل مما يجمعون من حطام الدنيا ، وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة . ويؤيد هذا الفهم أن الآية التي سبقت هذه الآية تقول : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

ويروى أنه حينما قدم خراج العراق الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، جعل عمر يعد الابل ، فاذا هي كثيرة كثيرة ، فجعل يردد قوله : الحمد لله تعالى . فقال تابع عمر : هذا والله من فضل الله ورحمته ، فرد عليه عمر قائلا : « هذا مما يجمعون ، لأن الله تعالى يقول : هو خير مما يجمعون ».

وقد تعرض ابن القيم لهذه الآية فذكر ان الله تعالى قد أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته ، وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة سبحانه ، فان من فرح بما يصل اليه من جواد كريم محسن بَرٍّ ، يكون فرحه بمن أوصل اليه ذلك أولى وأحرى . وفضل الله ــ كما قيل ــ هو الاسلام ، ورحمته هي القرآن ، وفضل الاسلام فضل عام على جميع أتباعه، ورحمته بتعليم قرآنه لبعضهم دون بعض فضل خاص ، فالله جعلهم مسلمين بفضله ، وأنزل اليهم كتابه برحمته ، كما قال : « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك » .

ثم قال ابن القيم : « وذكر سبحانه الامر بالفرح بفضله ورحمته عقيب قوله « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » . ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من

فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة . وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة .

فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة ـ التي هي الامر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب ، وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه . وهو (أي الجهل) أشد ألما لها من أدواء البدن . ولكنها لما ألفت هذه الادواء لم تحس بألمها ، وانما يقوى احساسها بها عند المفارقة للدنيا ، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن ، وما أتاها من ربها هو الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين ، وطمأنينة القلب به ، وسكون النفس اليه ، وحياة الروح به ، والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة ، وتدفع عنها كل شر ومؤلم .

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها ، أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به ، ومن فرح به فقد فرح بأجلّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها ، فانه ليس بموضع للفرح ، لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال ، ووخيم العاقبة ، وهو طيف خيال زار الصب في المنام ، ثم انقضى المنام ، وولى الطيف ، وأعقب مزاره الهجران » .

ويرى الامام أن فضل الله هو الاسلام والايمان ، وأن رحمته هي العلم والقرآن ، والله يحب من عبده أن يفرح بذلك ويُسَرَّ به ، بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة اذا عملها وأن يُسَرَّ بها ، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله ، حيث وفقه الله لها ، وأعانه عليها ويسرها له ، ففي الحقيقة انما يفرح العبد بفضل الله ورحمته .

ومن أعظم مقامات الايمان الفرح بالله والسرور به ، فيفرح به اذ هو عبده ومحبه ، ويفرح به سبحانه ربا والها ، ومنعما ومربيا .

وللامام الفخر الرازي في تفسيره بيان نفيس حول هذه الآية السابقة:

« قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا هو خير مـا يجمعون » . ونسوقـه لنفاسته مع تصرف يسير : المقصود من الآية الاشارة الى ما قرره حكمـاء الاسلام من ان السعادات الروحية أفضل من السعادات الحسية ، وقولـه تعالى « فبذلك فليفرحوا » يفيد الحصر ، أي لا يليق أن يفرح الانسان الا بذلك ، لأن اللذات الحسية لا معنى لها الا دفع الآلام ، وهذا معنى عدمي، والمعنى العدمي لا يستحق أن يفرح به . وكذلك نجد أن التضـرر بآلام اللذات الجسمية أقوى من الانتفاع بلذاتها ، كما انه لا سبيل الى تحصيل لذات الجسم ، الا عن طريق البطن والفرج ، وأما الآلام فان كل جزء من أجزاء بدن الانسان معه نوع من الآلام . واللـذات الجسمية لا تكـون خالصة البتة ، بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره . واللذات الجسمية لا تكون باقية ، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة مـن خوف فواتها أكثر ، ولذلك قال المعري :

ان حزنا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعـة الميلاد

فمن المعلوم ان الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحـزن الحاصل عند موته .

ونرى اللذات الجسمية حال حصولها ممتنعة البقاء لأن لذة الاكل لا تبقى بحالها بل كلما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالاكـل ، ولا يمكـن استبقاء هذه اللذة .

كما ان الالتذاذ باللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة ، فانهـا التذاذ بكيفيات حاصلة في أجسام سريعة الفساد مستعدة للتغير ، وأمـا اللذات الروحانية فانها بضد ذلك ، فثبت أن الفرح باللذات الجسمانيـة فرح باطل ناقص ، وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات .

ومن الواجب على العاقل حين تحصل له اللذات الروحية ألا يفرح بها

من حيث هي هي ، بل يجب أن يفرح بها من حيث انها من الله تعالى وبفضل الله ورحمته . ولهذا قال الصديقون : « من فرح بنعمة الله من حيث انها تلك النعمة فهو مشرك ، وأما من فرح بنعمة الله من حيث انها من الله ، كان فرحه بالله . وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة ».

ويعلق على الآية ذاتها أحد البصراء من المفسرين فيقول : « فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الايمان ... فبذلك وحده فليفرحوا ، فهذا الذي يستحق الفرح ، لا المال ولا أعراض هذه الحياة ، ان ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الارضية والاعراض الزائلة ، فيجعل هذه الاعراض خادمة للحياة لا مخدومة ، ويجعل الانسان فوقها وهو يستمتع بها ، لا عبدا خاضعا لها .

والاسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها . انما يحقرها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الارادة طلقاء اليد ، مطمحهم أعلى من هذه الاعراض ، وآفاقهم أسمى من دنيا الارض . الايمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الايمان هو الهدف ، والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم ، لا سلطان لها عليهم » .



ويقول الله تعالى في سورة آل عمران :

« وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمواتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزقونَ ، فَرِحينَ بِما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ

أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُم يَحزَنُونَ » [1] .

فالله تعالى يخبر عن الشهداء بأنهم ـ وان قـُتلوا في هذه الدار ـ فان أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار .

وقد كان أحدهم يجاهد في سبيل الله ، ليبلـّغ دعوة الله ، فيـُضرب بالرمح في جنبه حتى يخرج من الشق الآخر فيفرح بفضل الله عليه ويقول الله أكبر فزت وربِّ الكعبة !. وفي السنة أن الشهداء ، عند ربهم حينما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ... » . وهم فرحون بما هم فيه من الفضل والنعمة والغبطة ، ويستبشرون باخوانهم الذين يُقتلون بعدهم في سبيل الله ، لأنهم يقدمون عليهم ، ولا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم .

ويقول أحد البصراء من المفسرين في تحليل هذا النص الكريم : « فهؤلاء ناس منا يقتلون ، وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها ، ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها ، ولكن لأنهم قتلوا في سبيل الله ، وتجردوا له من كل الاعراض والاغراض الجزئية الصغيرة ، واتصلت أرواحهم بالله ، فجادوا بأرواحهم في سبيله ، لأنهم قـُتلوا كذلك ، فان الله ـ سبحانه ـ يخبرنا في الخبر الصادق أنهم ليسوا أمواتا ، وينهانا أن نحسبهم كذلك ، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده ، وانهم يرزقون فيتلقون رزقه لهم استقبال الاحياء ، ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الاخرى : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ ـ ١٧٠ .

فهم يستقبلون رزق الله بالفرح ، لأنهم يدركون أنه من فضله عليهم، فهو دليل رضاه . وهم قد قُتلوا في سبيل الله ، فأي شيء يفرحهم اذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه ؟.

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من اخوانهم ، وهم مستبشرون لهم لما علموه من رضا الله عن المؤمنين المجاهدين : « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » . انهم لم ينفصلوا من اخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ولم تنقطع بهم صلاتهم . انهم أحياء كذلك معهم ، مستبشرون بما لهم في الدنيا والآخرة . موضع استبشارهم لهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقد عرفوا هذا واستيقنوه من حياتهم عند ربهم ، ومن تلقيهم لما يفيضه عليهم من نعمة وفضل ، ومن يقينهم بأن هذا شأن الله مع المؤمنين الصادقين ، وأنه لا يضيع أجر المؤمنين » .



ويقول الله عز من قائل في سورة الرعد :

« والَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بما أُنْزِلَ إليكَ ، وَمِنَ الأَحزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَن أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مآبِ » [١] .

أي ان الذين آتيناهم الكتاب ، وهم قائمون بمقتضاه بلا تغيير ، يفرحون بما أنزل اليك من القرآن المجيد ، لما في كتبهم من الشواهد على

(١) سورة الرعد . الآية ٣٦ .

صدقه والبشارة به ، فالقرآن هو فضل الله الاكبر الذي يستحق أن يفرح به المؤمن .

ويقول الحق جل جلاله في أول سورة الروم :

« أَلم ، غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفرَحُ المؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ » (١) .

ذكر أهل التفسير أن المشركين كانوا يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، وقد تحقق ما ذكرته الآيات ، وهو انتصار الروم بعد هزيمتهم ، ففرح المؤمنون حينئذ بتحقق وعد الله تعالى ، لأن النصر لا يكون الا من عند الله .

* * *

هذا ولقد جعل أبو حامد الغزالي الفرح بفضل الله ونعمته أحد أصول ثلاثة يتحقق بها شكر الله تعالى على النعمة ، وبعد أن تحدث الغزالي عن الاصل الاول وهو « العلم بالنعمة » تكلم عن الاصل الثاني وهو « الفرح بالله الذي أنعم بالنعمة » فقال على طريقته ما يلي :

« الاصل الثاني : الحال المستمدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده ، كما أن المعرفة شكر ، ولكن انما يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه ، وشرطه

---

(١) سورة الروم ، الآية ٤ .

أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه ، فنضرب لك مثلا فنقول :

الملك الذي يريد الخروج الى سفر ، فأنعم بفرس على انسان ، يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يفرح بالفرس من حيث انه فرس ، وأنه مال ينتفع به ، ومركوب يوافق غرضه ، وأنه جواد نفيس . وهذا فرح من لا حظ له في الملك ، بل غرضه الفرس فقط ، ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح .

الوجه الثاني : أن يفرح به لا من حيث انه فرس ، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه ، واهتمامه بجانبه ، حتى لو وجد هـذا الفرس في صحراء ، أو أعطاه غير الملك ، لكان لا يفرح به أصلا ، لاستغنائه عن الفرس أصلا ، أو لاستحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك .

الوجه الثالث : أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه . وربما يرتقي الى درجة الوزارة، من حيث انه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسـا ، ويعتني به هذا القدر من العناية ، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد الا بواسطته ، ثم انه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خُيِّر بين القرب منه دون الوزارة ، وبين الوزارة دون القرب ، لاختار القرب .

فهذه ثلاث درجات : فالاولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا ، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، ففرحه بالفرس لا بالمعطي . وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه ، فهو بعيد عن معنى

الشكر . والثانية داخلة في معنى الشكر ، من حيث انه فرح بالمنعم . ولكن لا من حيث ذاته ، بل من حيث معرفته عنايته التي تستحثه على الانعام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه ، خوفا من عقابه ورجاء ثوابه . وانما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه تعالى ، والنزول في جواره ، والنظر الى وجهه على الدوام ، فهذا هو الرتبة العليا ، وأمارته ألا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للآخرة ، ويعينه عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى . وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة ، كما لم يرد صاحب الفرس الفرسَ لأنه جواد ومهملج ، بل من حيث انه يحمله في صحبة الملك ، حتى تدوم مشاهدته له ، وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال الخواص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب . وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ، ومدركات الحواس من الالوان والاصوات ، وخلا عن لذة القلب ، فان القلب لا يلتذ في حالة الصحة الا بذكر الله ومعرفته ولقائه » .



هذا وينبغي للمؤمن حين يفرح بفضل الله ورحمته أن يحذر مكر الله سبحانه ، لأن الفرح قد يجعل صاحبه ينسى المنعم وهو الله ، فيكون ذلك سببا لسلب النعمة ، ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ لا ينبغي له أن يفارقه الحذر ، فالفرح متى كان بالله ، وبما من الله به ، مقارنا للخوف والحذر ، لم يضر صاحبه ، ومتى خلا من الحذر ضر وأفسد .

وهاهوذا كتاب الله جل جلاله يشير الى ألوان من الفرح المنحرف الضار ، فيقول مثلا في سورة الانعام :

« فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُم مُبْلِسُونَ » (١) .

أي ان أهل الشرك والعناد والمعصية نسوا أوامر الله فأعرضوا عنها، وجعلوها وراء ظهورهم ، ففتح الله عليهم أبواب الاستدراج والاملاء والامهال ، فأعطاهم من متاع الحياة ما يريدون ، حتى اذا فرحوا بالاموال والشهوات أخذهم الله على غفلة ، فاذا هم يائسون محرومون من كل خير.

قال الحسن البصري : « من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يُمكر به فلا رأي له ، ومن قُتِّر عليه فلم ير أنه يُنظر اليه فلا رأي له » ثم قرأ الآية السابقة .

وروى : « ما أخذ الله قوما قط الا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فانه لا يغتر بالله الا القوم الفاسقون » . وفي الحديث : « اذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج » .

ويقول الله تعالى في سورة الرعد :

« اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ويَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيا وَما الحَيَاةُ الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلا مَتاعٌ » (٢) .

فالله سبحانه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتره على من

(١) سورة الانعام ، الآية ٤٤ .
(٢) سورة الرعد ، الآية ٢٦ .

يشاء ، بعلم وحكمة ، وليس متاع الدنيا هو كل شيء ، وليس هو الشيء المهم الذي يفرح به عباد الله ، ولقد فرح الكفار بما أوتوا من متاع الحياة الدنيا على سبيل الاستدراج والامهال ، وهذا فرح في غير موضعه ، لأن الحياة الدنيا بالنسبة الى الدار الآخرة قليلة حقيرة ، والحديث يقول : « ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل أحدكم اصبعه هـذه في اليم ، فلينظر بم ترجع » .

وجاء في سورة النمل قوله سبحانه :

« فَلَمَّا جاءَ سليمانُ قالَ أَتُمِدُّونني بمال ، فما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمّا آتاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ » [1] .

فقد أرسلت « بلقيس » بهدايا من ذهب الى سليمان ، لأنها تعلم أن الهدية تقع موقعها من الناس ، فلم يلق سليمان بالا الى الهدية . ولم يفرح بها ، بل أعرض عنها . وقال منكـرا : أتصانعونني بالمـال لأترككم عـلى شرككم ؟ فأنا لا أفرح بمثل هذا ، والله سبحانه قد أعطاني خـيرا ممـا أعطاكم .

وجاء في سورة القصص :

« إِنَّ قارونَ كانَ مِنْ قَوْمِ موسى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وآتيناهُ مِنَ الكُنوزِ ما إِنَّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ » [2] .

ان قارون طغى على قومه وبغى بسبب كثرة المال : « كلا ان الانسان

(١) سورة النمل ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة القصص ، الآية ٤٦ .

ليطغى ، ان رآه استغنى » وكانت أمواله كثيرة ، ترهق في حملها مجموعة من الناس الاقوياء لكثرتها ، فلما رأى العقلاء من قومه ما بدا من طغيانه وبغيه قالوا له واعظين ناصحين : لا تفرح بما أنت فيه من مال فرح البطر والأشر ، لأن الله لا يحب هؤلاء الفرحين الاشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما آتاهم وأعطاهم .

وجاء في سورة غافر :

« ذَلِكُمْ بما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُون » (١) .

أي تقول الملائكة يوم القيامة للمجرمين الكافرين من أهل النار : هذا العقاب الذي تلاقونه ، انما هو جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ، لأنه فرح بغير فضل الله ونعمته .

وجاء في سورة المؤمنون :

« كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (٢) .

أي يفرحون بما هم فيه من الضلال ، وما أكثر أودية الضلال ، كل منهم في واد يهيمون ، لأنهم يحسبون انهم مهتدون ، وهم في الضلال غارقون ، ولذلك تهددهم الله بقوله عقب ذلك :

« فَذَرْهُمْ في غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ في الخَيْراتِ بَلْ

---

(١) سورة غافر ، الآية ٧٥ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥٣ .

لا يَشْعُرُونَ »[1] .

الا ان الفرح بكل متاع زائل فرح ناقص مبتور ، وقد ينقلب وبالا على صاحبه في العاجل أو الآجل، وأما الفرح بالله وفضله ورحمته فهو الفرح الحقيقي الباقي :

« قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »[2] .

اللهم هبنا الفرح بك، واصرفنا عن الفرح بسواك، فنعم الهدى هداك.

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥٤ ــ ٥٦ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٥٨ .

سلامة القلب

لغة العرب ـــ وهي لغة القرآن ـــ تقول : سَلِم فلان يسلَم سلاما وسلامة : خلص ونجا وخلا من العوارض والموانع . وفي القرآن :

« وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » [1] .

أي أصحاء خالون من العوارض والموانع . وتقول هـذه اللغـة : أسلم فلان ، أي انقاد ، أو أخلص ، وفي القرآن :

« يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذينَ أَسْلَمُوا » [2] .

أي أخلصوا ، ووصف الانبياء هنا بالاسلام هو تعظيم للصفة في نفسها وتنويه بها .

وفيه أيضا :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا في السِّلْمِ كافَّةً » [3]

(١) سورة القلم ، الآية ٤٣ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٨ .

أي في طريق الامان والنجاة .

ويقرر العلماء أن السلامة الحقيقية الباقية انما تكون في الجنة ، وفيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقم ، ولذلك قال الحق عز شأنه :

« لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (١) .

أي دار السلامة .

و « سلامة القلب » فضيلة من فضائل الاسلام ، وخلق من أخلاق القرآن وجزء من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسلامة القلب هي صفاؤه ونقاؤه ، وصحته وقوته ، وطهارته وبراءته ، والمؤمن الحق من شأنه أن يكون صاحب « قلب سليم » . وكثرت عبارات السلف في المراد بالقلب السليم ، فقيل : هو الخالص من دغل الشرك والذنوب . وقال ابن عباس : القلب السليم هو الذي يشهد ان لا اله الا الله ، أي العامر بقصيدة التوحيد . وقال مجاهد : قلب سليم يعني سلم من الشرك . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر أو المنافق مريض ، قال تعالى :

« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » (٢) .

وقال أبو عثمان النيسابوري : « القلب السليم هو القلب السالم من البدعة المطمئن الى السنة » . وقال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها . وأن الله يبعث من في القبور .

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٢٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠ .

ومن هذه الاقوال نفهم أن سلامة القلب في عرف المفهوم الاخلاقي القرآني تعطي معاني الطهر والصفاء ، والايمان بالله جل جلاله ، والاعتقاد فيما شرع الله ، والتحرز من الرذائل والعيوب .

وقد أغرب بعضهم في التفسير فقال ان كلمة « السليم » معناها : اللديغ من خشية ، ولذلك قال جار الله الزمخشري : « هـذا من بدع التفاسير » .

وقد أشار القرآن المجيد الى فضيلة سلامة القلب ، فقال في سورة الشعراء :

« يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ ، إلا مَنْ أَتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] .

أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو كثر ، ولا بنوه وان كثروا ، فلا ينفعه الافتداء بملء الارض ذهبا ، ولا ينفعه الافتداء بمن على الارض جميعا ، ولا ينفع يومئذ الا الايمان بالله ، واخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله ، وانما يفوز يومئذ من أتى الله بقلب سليم ، خالص من الشرك ، بعيد عن الدنس .

ان يوم القيامة تختلف موازينه عن موازين الدنيا ، فلا ينفع المال ولا البنون أحدا ، ولكن من أقبل على الله بنفس منزهة عن الشرك والنفاق ، وقلب صاف طهور لا اثم فيه ولا دغل ـ وهو قلب المؤمن ، فهو الفائز بفضل الله وثوابه ، وكذلك يفوز من انفق ماله في الخير ، ومن كان ولده صالحا ، ولذلك جاء في الحديث : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ـ ٨٩ .

ويعلق الزمخشري على الآيتين السابقتين ، بما يلقي ضوءا على معناهما ومفهومهما فيقول على طريقته :

« وبيانه أن يقال : هل لزيد مال وبنون ؟. فتقول : ماله وبنوه سلامة قلبه . تريد نفي المال والبنين عنه ، واثبات سلامة القلب له ، بدلا عن ذلك .

وان شئت حملت الكلام على المعنى ، وجعلت المال والبنين في معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى الا غنى من أتى الله بقلب سليم ، لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه ، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه .

ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا ، ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال ، والمراد بها سلامة القلب ، وليست هي من جنس المال والبنين ، حتى يؤول المعنى الى أن المال والبنين لا ينفعان ، وانما ينفع سلامة القلب ، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى ، وقد جعل «من» مفعولا لينفع ، أي لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله ، حيث أنفقه في طاعة الله ، ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين وعلمهم الشرائع .

ويجوز على هذا : الا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين ، ومعنى سلامة القلب سلامته من آفات الكفر والمعاصي » .

* * *

ويقول القرآن الكريم في سورة الصافات متحدثا عن نوح وابراهيم:

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] .

أي ان من شيعة نوح وأهل دينه ابراهيم عليه السلام الذي أقبل على ربه بقلب سليم عامر بالتوحيد والخير ، نقي من الشرك والاثم ، خالص من

(1) سورة الصافات ، الآية ٨٣ ــ ٨٤ .

آفات القلوب وعيوبها ، ومجرد وصف ابراهيم بهذا الوصف وهو «سلامة القلب» فيه تشريف لهذه الفضيلة ، وتنوه بشأنها أي تنوه ، لأن ابراهيم هو خليل الرحمن وأبو الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

ونحن نجد وصف « سلامة القلب » منسوبا الى ابراهيم في القرآن مرتين ، هذه المرة في سورة الصافات ، وتلك المرة السابقة عليها في سورة الشعراء ، وفي الشعراء يمضي النص هكذا على لسان ابراهيم :

« وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ، إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] .

ويحسن بنا أن نردد هنا ما ذهب اليه بعض بصراء المفسرين من اننا نستشف من قولة ابراهيم عليه السلام : « ولا تخزني يوم يبعثون » مدى شعوره بهول اليوم الآخر ، ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره ، وهو النبي الكريم .

كما نستشف من قوله : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » مدى ادراكه لحقيقة ذلك اليوم ، وادراكه كذلك لحقيقة القيم ، فلا يوجد في يوم الحساب من قيمة الا قيمة الاخلاص الذي يجعل القلب كله لله ، ويجعله متحررا من كل شائبة وغرض ومرض ، صافيا من الشهوات والانحرافات ، خاليا من التعلق بغير الله ، فهذه هي سلامته التي تجعل له وزنا وقيمة « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم » ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائفة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الارض ، وهي لا تزن شيئا في ميزان الله العادل .

وحين نقف أمام قول الله تعالى في الصافات : « وان من شيعته

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٧ ــ ٨٩ .

لابراهيم ، اذ جاء ربه بقلب سليم » نجد أحد البصراء بالتفسير يعلق على الآية الاخيرة من هاتين الآيتين بقوله :

« يبرز من صفة ابراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير : « اذا جاء ربه بقلب سليم » وهي صورة الاستسلام الخالص ، تتمثل في مجيئه لربه ، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه ، والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لمدلوله ، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم ، ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة ، والاخلاص والاستقامة ، الا أنه يبدو بسيطا غير معقد ، ويؤدي معناه بأوسع مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات ، وتلك احدى بدائع التعبير القرآني الفريد .

وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه ، استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك ».



والحديث عن « سلامة القلب » يدعونا الى الحديث عن « القلب » .

ان القلب في عرف رجال التربية والاخلاق لطيفة ربانية روحية ، هي حقيقة الانسان ، ولها علاقة بالقلب الحسي المودع في الجانب الايسر من الصدر ، والقلب ــ كما يقول أبو حامد الغزالي ــ هو العالم بالله ، المتقرب الى الله ، العامل لله ، الساعي الى الله ، المكاشف بما عند الله ، والجوارح أتباع وخدم ، وآلات يستخدمها القلب ، ويستعملها استعمال المالك للمملوك ، أو الراعي للرعية .

والقلب هو المقبول عند الله اذا سلم لله ، ولم يكن محجوبا عن الله ، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح اذا زكاه صاحبه ، وهو الذي يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه ، وهو المطيع لله في الحقيقة ، والذي

ينتشر على الجوارح من العبادة أنواره ، وهو الذي اذا عرفه الانسان عرف نفسه ، واذا عرف نفسه عرف ربه سبحانه وتعالى .

واذا سيطر الشيطان على هذا القلب أفسده وأضله ، وأفقده سلامته وطهارته ، وللشيطان مداخله الكثيرة الى هذا القلب لافساده ، وقد توسع أبو حامد كثيرا في بيان مداخل الشيطان على قلب الانسان ، والآفات التي تفقده سلامته ، ومنها الغضب والشهوة ، والحسد والحرص ، والاسراف في الطعام ، وحب التزين ، والعجلة وترك التثبت في الامور ، والمال واغراؤه ، والبخل وخوف الفقر ، والتعصب للمذاهب والآراء ، وسوء الظن بالمسلمين ، والمعاصي والآثام التي تسبب كدورة على وجه القلب تمنع صفاءه وجلاءه ...

ومعنى هذا أن القلوب معرضة لخواطر الخير ووساوس الشر ، ولذلك جاء في « الاحياء » :

« وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر ، وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الافكار والاذكار ، وأعني به ادراكاته علوما اما على سبيل التجدد ، واما على سبيل التذكر ، فانها تسمى خواطر ، من حيث انها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والخواطر هي المحركات للارادة ، فان النية والعزم والارادة ، انما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة ، فمبدأ الافعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الاعضاء .

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم الى ما يدعو الى الشر ، أعني الى ما يضر في العاقبة ، والى ما يدعو الى الخير ، أي الى ما ينفع في الدار الآخرة ، فهما خاطران مختلفان ، فافتقرا الى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى الهاما ، والخاطر المذموم ــ أعني الداعي الى الشر ــ يسمى وسواسا .

ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم ان كل حادث لا بد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الاسباب » .

ويرى الامام أن القلوب في الثبات على الخير والشر ، والتردد بينهما ثلاثة أقسام :

قلب عمر بالتقوى ، وزكا بالرياضة ، وطهر عن خبائث الاخلاق ، تتحرك فيه خواطر الخير من خزائن الغيب وفضل الرب ، فينصرف عقل الانسان الى التفكير فيما خطر له ، فيعرف دقائق الخير ، ويطلع على أسرار فوائده ، فيدرك أنه لا بد من فعله ، فيستحثه عليه ، ويدعوه الى العمل به.

فعند ذلك يكون المدد من جنود لا ترى ، ويهديه الى خيرات أخرى، ولا يتناهى امداده بالترغيب في الخير ، وتيسير الامر عليه ، ويشير الى ذلك قول القرآن في سورة الليل :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » (١) .

ومثل هذا القلب لا يروج عنده شيء من مكائد الشيطان ، بل يُعرض عن الشيطان كلما حاول التغرير به ، ويصبح القلب عامرا بالفضائل ، وهو القلب المطمئن المراد في قوله تعالى :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ » (٢) .

والقلب الثاني قلب مشحون بالهوى ، المدنس بالاخلاق المذمومة ،

---

(١) سورة الليل ، الآيات ٥ ــ ٧ .
(٢) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .

الذي انفتحت فيه أبواب الشياطين ، وحيل بينه وبين أبواب الملائكة ، فثارت فيه خواطر الهوى ، فاستجاب الصدر لهذه الخواطر ، فيقوى سلطان الشيطان ، ويقبل الانسان على متابعته ، فيضعف سلطان الايمان ، ويخبو نور اليقين ، اذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم يملأ جوانب القلب ، حتى تنطفىء أنواره ، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب ، والى هذا يشير القرآن بقوله في سورة الفرقان :

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وكيلاً ، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضلُّ سَبيلاً »[1] .

والقلب الثالث قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه الى الشر ، فيدركه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها الى نصرة خاطر الشر ، فتقوى الشهوة ، فينبعث العقل الى خاطر الخير ، ويقاوم الشهوة ، فتميل النفس الى نصح العقل ، فيحمل الشيطان حملة على العقل ، فيقوى داعي الهوى ، ويزيّن للانسان الاثم ، فتميل النفس الى الشيطان ، فيحمل الملك حملة على الشيطان ، فتميل النفس الى جانب الخير ، فلا يزال الانسان يتردد بين الجانبين ، الى أن يغلب على القلب ما هو أولى به .

* * *

ولأطباء الارواح والقلوب جولتهم وصولتهم في عالم الحديث عن سلامة القلب وصلاحه ، فهذا أبو الخير الأقطع يقول مثلا « لن يصفو قلبك الا بتصحيح النية لله تعالى ، ولن يصفو بدنك الا بخدمة أولياء الله تعالى» . ويقول الجنيد : « ان الله تعالى يخلص الى القلوب من بره ، حسب ما

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٣ .و٤٤ .

خلصت القلوب به اليه من ذكره ، فانظر ماذا خالط قلبك » . ويقول ابن خبيق الانطاكي : « خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهوات من القلب الا خوف مزعج أو شوق مقلق». ويقول محفوظ النيسابوري : « أكثر الناس خيرا أسلمهم صدرا للمسلمين » . ويقول أبو تراب النخشبي : « أشرف القلوب قلب حي بنور الفهم عن الله تعالى » .

وهذا بعض قليل مما فصلوه وشعبوه من ألوان الحديث عن القلب وسلامته من الآفات .

وفي روضة السنة النبوية المطهرة فيض عامر غامر من التنويه بشأن القلب وسلامته ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يرشدنا الى أن جوهرة القلب هي الاساس للانسان ، فيقول : « ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، واذا فسدت فسد الجسد كله، الا وهي القلب».

وقد روى الامام أحمد : « قد أفلح من أخلص قلبه للايمان وجعل قلبه سليما » .

ويشير الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن الانسان مفطور على الخير والاستقامة والسلامة ، ولكن عوامل الانحراف والاعتساف هي التي تخرج به عن الصراط ذات اليمين أو ذات الشمال ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه » .

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يلفت الابصار والبصائر الى المرتبة العالية التي احتلتها فضيلة سلامة القلب ، فهو يتوجه الى ربه مصدر العطاء يسأله هذه السلامة ، فيقول : « وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا». ويقول : «اللهم نقِّ قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس».

ولعله كان يريد في هذه الدعوات الخير لأمته ، حيث يعلمها أن تلجأ الى بارئها تسأله من فضله أن يفيض عليها نعمة السلامة في القلب فانها كنز ثمين لصاحبها في هذه الحياة .

ولقد قيل للرسول : من خير الناس ؟.

فأجاب : « كل مؤمن محموم القلب » .

قيل : وما محموم القلب يا رسول الله ؟.

قال : هو التقي النقي الذي لا غش فيه ، ولا بغي ، ولا غدر ، ولا غل ، ولا حسد » !.

وتقسم ألسنة القلوب الى أقسام ، لكل قسم صفته وسمته فتقول : « القلوب أربعة : قلب أجرد ، فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس ، فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، فذلك قلب المنافق ، وقلب مُصفح على الحق (أي مُمال عليه ، كأنه قد جعل صفحه أي جانبه على الحق) ، فيه ايمان ونفاق ، فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأي المادتين غلبت عليه حُكم له بها » .

وتذكر لنا السنة أن سلامة القلب نعمة كبرى ، وأن المؤمن من واجبه أن يحذر من الشيطان الذي يحاول أن يفسد قلبه ، فتقول : « في القلب لمتان (خطرتان) لمة من الملك : وعد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ، ولمة من الشيطان : ايعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اذا أراد الله بعبد

خيرا جعل له واعظا من قلبه » . ولا يصلح القلب أن يعظ فيصدق في وعظه الا اذا كانت فيه فضيلة السلامة والصفاء . وبعد عن هواتف الشيطان ووساوسه ، ولذلك يقول الحديث : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء » .

ورضي الله تبارك وتعالى عن الامام علي حين قال : « ان لله تعالى في أرضه آنية هي القلوب ، فأحبها اليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها : أصلبها في الدين ، وأصفاها في اليقين ، وأرقها على الاخوان » .

اللهم ارزقنا سلامة القلب ، وصفاء الصدر ، وقوة اليقين .

المعرفــة

المعرفة في الاصل هي ادراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، وقد تشتبه المعرفة بالعلم ، مع أن معنى المعرفة أخص من العلم ، فمعرفة البشـر للـه تعالى هي بتدبر آثاره ، دون ادراك ذاته، والعلم هو ما يدرك بواسطة كسب أو بلا واسطة ، والمعرفة هي ما يدرك بواسطة من الكسب فقط . كما أن المعرفة تفترق عن العلم استعمالا في أن العلم يقال لادراك المركب ، والمعرفة تقال لادراك البسيط .

ومن المعرفة جاء وصف « العــارف » وهو المختص بمعرفــة الله ومعرفة ملكوته وحسن معاملته ، وبهذا تكون المعرفة أعظم درجة من العلم، ومن هذا الباب تصبح المعرفة خلقا من اخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانبا من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم .

ويعبر بعض أطباء القلوب والارواح عن معنى هذه المعرفة ، فيقول : « المعرفة حياة القلب مع الله » . ويقال : العارف من أنس بالله فأوحشـه من الخلق ، وافتقر الى الله فأغناه عنهم ، وذل لله فأعزه فيهم ، وتواضع لله فرفعه بينهم ، واستغنى بالله فأحوجهم اليه .

والعارف ابن وقته ، بمعنى انه يشغل نفسه على بصيرة بواجب وقته الحاضر ، فلا يشغلها بما مضى وصار في العدم ، ولا يشغلها بما لم يدخل

في الوجود . بل همه أن يعمر وقته بواجبه . حتى لا يضيع عليه واجب .

ولعل كتاب الله المجيد قد أشار الى شيء من مفهوم المعرفة الاخلاقي. حينما قال في سورة المائدة :

« وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَالَنا لا نُؤْمِنُ باللهِ وَما جاءَنا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصّالِحينَ ، فأَثَابَهُمُ اللهُ بِما قَالُوا جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ » [1] .

أي اذا سمع هؤلاء ما أنزله الله عز شأنه من القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ترى ـ أيها الناظر ـ دموعهم تسيل بغزارة من عيونهم . وذلك من أجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن ، ولم يمنعهم عن ذلك مانع من استكبار أو عناد أو عتو . وهذه حالهم وقد سمعوا بعضا من القرآن ، فكيف لو سمعوه كله ؟. ان المعرفة ستكون أشمل وأكمل .

ويعلق القرطبي على هذا النص الكريم ، فيذكر من أحوال العلماء العارفين بالله أنهم يبكون ولا يصعقون ، ويسألون ولا يصيحون ، ويتحازنون ولا يتموتون ، كما قال الله تعالى :

« اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ٨٣ ـ ٨٥ .

مِنْهُ جُلودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ » [1] .

ولقد استظل مفسر بصير بظلال هذه الآيات الكريمة السابقة ، واستنبط منها جانبا من أحوال هؤلاء العارفين الذين يزدانون بفضيلة المعرفة ، فذكر لهم ان كلمات الله تصل الى قلوبهم بمجرد سماعها ، « فاذا عيونهم تفيض من الدمع تأثرا ورقة وانعطافا ، واذا ادراكهم لمدلول تلك الكلمات يتحول الى « معرفة » لما فيها من الحق ، والمعرفة لفظة دالة على الادراك الكامل ، والتأثر بهذا الادراك ، وامتزاج الذات كلها به ، وامتزاجه بالذات، فهي أعمق وأشمل من كلمة «العلم» لأن العلم حالة سلبية تهنى عن وصول المعلومات الى العقل . أمّا المعرفة فحالة ايجابية تعني تأثر العارف بما عرف ، وتسود حالة جديدة في وعيه مما عرف .

هذه المعرفة جعلت القوم هنا تفيض أعينهم من الدمع ، ذلك أن التأثر الذي غمرهم في الوهلة الاولى فاستغرقهم كان من القوة والعمق والاستغراق حتى ما يحده لفظ ، وما يعبر عنه لسان ، وحين يطغى التأثر بوجدان غامر لا يكون المجال للقول ، انما يكون المجال للدمع ، يطلق الشحنة الطاغية ، ويريح الحس والاعصاب .

حتى اذا فاض الدمع ، وخف الضغط ، وهدأت الاعصاب ، انطلق اللسان « يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .

ربنا آمنا... صدقت قلوبنا واطمأنت واستقرت، فاكتبنا مع الشاهدين: الشاهدين بأن هذا الدين حق ، وأنه من عند الله ، الآخذين أنفسهم بهذه الشهادة قبل أن يأخذوا بها سواهم ، فهم يؤمنون ويعملون بمقتضى

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .

هذا الايمان ، ثم هم يدلون بشهادتهم للآخرين ، ويدعونهم الى ما آمنوا به ، ويشهدون على ما يكون منهم من استقامة أو انحراف .

وهم في ايمانهم بما عرفوا من الحق أقوياء ، يستنكرون أن ينكر عليهم أحد هذا الايمان : « وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » ؟.

ان كل ما حولنا ليوحي الينا بالايمان ، فلماذا اذن لا نؤمن ؟ لماذا لا نؤمن بالله ، وما جاءنا من الحق من عند الله ؟ لماذا لا نرجو ثواب الله ، ونطمع أن يجعلنا من رفقة الكتيبة الصالحة من عباده ، وباب الرجاء مفتوح، والطامع في فضل الله بالايمان والصلاح لا يخيب ؟

فاذا ما قالوا قولتهم المطمئنة الواثقة ، حقق الله لهم الرجاء ، وكتب لهم الفلاح : « فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » .

وكمال المعرفة بالله يقتضي الوجل منه والخشوع لجلاله ، ولذلك نجد القرطبي في جامعه يتعرض لقوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقوله : « وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ، فيذكر ان هذا الوجل يرجع الى كمال المعرفة وثقة القلب ، فنفوسهم تسكن من ناحية اليقين الى الله ، وان كانوا يخافون الله ، فهذه حالة العارفين بالله ، والخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله العوام المبتدعون الاراذل ، من الزعيق والزئير والنهاق الذي يشبه نهاق الحمير ، فينبغي أن يقال لمن يفعل ذلك : انك لم تبلغ أن تساوي حال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك كانت حالهم عند المواعظ فهما عن الله ، وبكاء من خوف الله ، ولذلك وصف الحق أحوال أهل المعرفة عند ذكر الله وتلاوة كتابه ، فقال : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما

عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » فهـذا وصـف حالهم ، وحكاية مقالهم ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا عـلى طريقتهم .

وقد روى مسلم أن الناس سألوا النبي صلى الله عليـه وسلم حتى أحفوه في المسألة (أكثروا عليـه) فخرج ذات يوم فصعد المنبر وقـال : « سلوني ، لا تسألوني عن شيء الا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا » . فلما سمع القوم ذلك سكتوا ورهبوا وخافوا أن يكون بين يدي أمر قد حضـر .

قال أنس راوي الحديث : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فاذا كل انسان لافٌ رأسه في ثوبه يبكي !. وروى الترمذي عن العرباض بن سارية : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون . ووجلت منها القلوب .

* * *

وقد ذكروا لصدق المعرفة علامات منها :

١ ـ حصول الهيبة من الله ، لأن من ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

٢ ـ الأنس بالله ، وأن يحس الانسان بقرب قلبه من الله ، فيجده قريبا منـه .

٣ ـ من كان بالله أعرف كان له أخوف وأخشى :

« إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العلماءُ »(١) .

وكأن المعرفة هي درجة الاحسان التـي يصفهـا الرسول بقولـه :

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك» . ولذلك يقول القائل :

اذا سكن الغدير على صفاء وجُنِّبَ أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلي يُرى في صفوها الله العظيم

هكذا استشهد ابن القيم في « مدارج السالكين » .

وصلوات الله وسلامه على رسوله القائل : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » .

والمعرفة بالله ليست معرفة لذاته . وانما هي معرفة لمظاهر ربوبيته ودلائل وحدانيته . ولذلك نسبوا الى أبي بكر رضوان الله عليه أنه قال : « سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته ، الا بالعجز عن معرفته » .

وهناك عند الاشرار نوع من المعرفة المعاندة يشير اليها القرآن المجيد في سورة الانعام حيث يقول :

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمنونَ » [1] .

فهذه معرفة مكابرة لا تثمر ثمرة المعرفة الصحيحة السليمة ، وهذا النوع من المعرفة يجعل أصحابها يعرفون الحقيقة كما يعرفون أبناءهم ، ومع ذلك ينكرون ما يعرفون ، لأن اظهارهم لهذه الحقيقة سيفقدهم جاههم وسلطانهم في الحياة .

ويقول القرآن في سورة البقرة :

---

(١) سورة الانعام . الآية ٢٠ .

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ » (١) .

فالذين أوتوا الكتاب يعرفون صدق ما جاء به رسول الله من عند ربه ، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم ، ولكنهم يكتمون هـذا الحق سفها وعنادا ومكابرة .



والصوفية يهتمون على طريقتهم التي عُرفت عنهم بالمعرفة وتصوير الحديث عن أهلها بما يدل على أنهم يجعلون لها مكانة مرموقة عند أهل القلوب والارواح . فيقول الفضيل : « أحق الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة بالله عز وجل » . وسئل أبو سعيد الخراز عن المعرفة ، فقال : المعرفة تأتي من وجهين : من عين الجود ، وبذل المجهود . وكأنه يقصد أن بعض المعرفة هبة من الله سبحانه ، وبعضها يتحقق بمجهود يبذله المرء . ويقول الشبلي : من علامة المعرفة أن يرى نفسه في قبضة العزة ، ويجري عليه تصاريف القدرة ، ومن علامة المعرفة المحبة ، لأن من عرفه أحبه .

وأساس المعرفة هو الاستقامة ، ولذلك قيل لبعض الصوفية : ما حاجة العارفين ؟. فقال : حاجتهم الى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ، وبفقدها قبحت المقابح كلها ، وهي الاستقامة .

والقرآن الكريم يقول :

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٦ .

(٢) سورة هود ، الآية ١١٢ .

وعلامة العارف كما يقول ذو النون ثلاثة : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله تعالى عليه وكرامته على هتك أستار محارم الله تعالى :

وهناك لونان من المعرفة ، معرفة ايجابية ، ومعرفة عجز ، أو قل — كما يرى أحمد بن عطاء — معرفة حق ، ومعرفة حقيقة ، فمعرفة الحق هي معرفة وحدانية الله ، على ما أبرز لخلقه من أسمائه وصفاته ، ومعرفة الحقيقة هي ادراك انه لا سبيل الى ادراك هذه الحقيقة ، لقول الله تعالى :

« ولا يُحِيطُونَ بهِ عِلْماً »(1) .

فلا سبيل الى المعرفة هنا على الحقيقة ، لأن الله عز وجل أبرز لخلقه من أسمائه وصفاته ما علم انهم يطيقونه ، ولكن حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق .

ويرى بعضهم أن أعمال الابرار بالعلم ، وأن أعمال المقربين بالمعرفة ، وأن المعرفة فوق العلم ، ويعلق ابن القيم على ذلك بقوله : « وهذا كلام يصح من وجه ، ويبطل من وجه ، فالابرار والمقربون عاملون بالعلم واقفون مع أحكامه ، وان كانت معرفة المقربين أكمل من معرفة الابرار ، فكلاهما أهل علم ومعرفة ، فلا يسلب الابرار المعرفة ، ولا يستغني المقربون عن العلم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل . انك تأتي قوما أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة ان لا اله الا الله ، فاذا هم عرفوا الله ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة » فجعلهم عارفين بالله قبل اتيانهم بفرض الصلاة والزكاة ، بل

---

(1) سورة طه ، الآية ١١٠ .

جعلهم في أول أوقات دخولهم في الاسلام عارفين بالله ، ولا ريب أن هذه المعرفة ليست كمعرفة المهاجرين والانصار ، فالناس متفاوتون في درجات المعرفة تفاوتا بعيدا » .

ولكن ، من الذي يستحق وصف العارف . ان أطباء القلوب والارواح يرون ــ كما يورد ابن القيم ــ أن المعرفة هي العلم الذي يقوم العالم بمقتضاه وموجبه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، ولا يصفون بالمعرفة الا من كان عالما بالله ، وبالطريق الموصل الى الله ، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة .

فالعارف من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله في معاملته ، ثم أخلص له في قصده ونيته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة ، ثم تطهر من أدرانه ومخالفاته ، ثم صبر على أحكام الله في سرائه وضرائه ، ثم دعا اليه على بصيرة بدينه وآياته ، ثم جرد الدعوة اليه وحده بما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يشبها بآراء الرجال وأذواقهم ومقاييسهم ...

ومن دقائق التعبيرات الدائرة حول فضيلة « المعرفة » قول يحيى بن معاذ : « العارف كائن بائن » . ولدقة هذه العبارة تعددت الاقوال في تفسيرها ومعناها : قيل ان معناها أنه كائن مع الخلق بحسه وظاهره ، بائن عنهم بسره وقلبه . وقيل : كائن بربه ، بائن عن نفسه . وقيل : كائن مع أبناء الآخرة ، بائن عن أبناء الدنيا . وقيل : كائن مع الله بموافقته ، بائن عن الناس في مخالفته ...

ويستحسن ابن القيم وجها آخر في التفسير ، هو حسب تعبيره : أنه داخل في الاشياء خارج منها ، فان من الناس من هو داخل فيها ، لا يقدر على الخروج منها ، ومنهم من هو خارج عنها ، لا يقدر على الدخول فيها ، والعارف داخل فيها خارج منها .

وما أكثر الكلمات الدقيقة العميقة التي أدارها القوم حول هذه الفضيلة الجليلة « المعرفة » ، وتحتاج الى حسن التلبث في تدبر معناها ومغزاها :

يقول ذو النون : ان العارف لا يلزم حالة واحدة ، انما يلزم ربه في الحالات كلها .

وقال أبو تراب النخشبي : العارف هو الذي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء .

وقال يحيى بن معاذ : « الزاهد صافي الظاهر مختلط الباطن ، والعارف صافي الباطن ، مختلط الظاهر .

وقال سهل بن عبدالله : الفتن ثلاث : فتنة العامة من اضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق في وقت ، فيؤخروه الى وقت ثان .

ألا ان العارف بالله يمضي على بينة من ربه ومولاه ، لا يعبد أحدا سواه ، ولا تعرض له ريبة ولا ظنة ، بل يمضي على بصيرة من أمره مستشعرا قول ربه :

« قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ، قُل لاَ أَتَّبِعُ أَهواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ المُهْتَدِينَ ، قُلْ إِني على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بهِ ، ما عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بهِ ، إِنِ الحُكْمُ إلا للهِ ، يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ

خَيْرُ الفاصِلينَ » [1] .

ويذكر أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي أن مصعب ابن عبدالله بن الزبير ، قال في معنى هاتين الآيتين :

أأقعــد بعد ما رجعت عظــامي ... وكان الموت أقرب مــا يليني ؟
أجــادل كلَّ معتــرض خصيم ... وأجعــل دينــه غرضــا لديني
فاترك مــا علمت لرأي غيري ؟ ... وليس الرأي كالعلــم اليقــين
وما أنا والخصومة ، وهي شيء ... يصرّف في الشمال وفي اليمين
وقــد سُنَّت لنا سنن قِوام ... يلحن بكل فــج أو وجــين
وكان الحــق ليس بــه خفــاء ... أغرّ كغــرة الفلــق المبــين
ومــا عوض لنــا منهاج جهم ... بمنهــاج ابــن آمنــة الأمــين
فأما مــا علمت فقــد كفــاني ... وأمــا مــا جهلت فجنِّبوني !!

والوجين : هو شط الوادي . وجهم هو جهم بن صفوان السمرقندي صاحب فرقة ضالة . وابن آمنة هو سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

اللهم هبنا المعرفة بك ، والمعرفة منك ، والمعرفة لــك . فانك أنت الرؤوف الرحيم .

---

(1) سورة الانعام ، الآية ٥٦ ، ٥٧ .

الحيــاة

قد يبدو غريبا لدى القارىء أن تكون « الحياة » حلقة في سلسلة « أخلاق القرآن » ، ولكن هذه الغرابة تزول حين يعرف أن المقصود بالحياة ليس مجرد الحياة الحسية التي هي ضد الموت ، اذ قد يراد بالحياة معنى مجازي على التشبيه لاصلاح النفوس بالحياة ، والعرب تقول عن الرجل صاحب الهمة ورقة الخلق انه حي القلب ، وهذا المعنى هو المراد في هذا المجال .

وقد ذكر العلماء أن « الحياة » تستعمل على أوجه ، فقد يراد منها القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان ، ومن ذلك قيل : نبات حي . وقد يراد منها القوة الحساسة ، ومن هنا سمي الحيوان حيوانا، وعلى هذا جاء قوله تعالى :

« وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ » (١) .

وقد يراد منها القوة العاملة العاقلة ، ومن هذا قوله :

« أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ » (٢) .

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٢ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ١٢٢ .

ومن هذا أيضا قول الشاعر :

لقـد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حيـاة لمن تنـادي

وقد يراد منها ارتفاع الغم ، كقول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت انما الميـت ميت الاحيـاء

وقد يراد منها الحياة الأخروية الابدية ، وذلك يتوصل اليه بالحياة التي هي العقل والعلم ، ومن هذا قوله تعالى :

« يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » (١) .

أي الحياة الأخروية الدائمة .

وقد تحدث ابن القيم عن مراتب الحياة حديثا واسعا ، فبدأ بحيـاة الارض بالنبات ، تليها حياة النمو والاغتذاء المشتركة بين الحيوان والنبات، ثم حياة الاحساس والحركة ، ثم حياة الحي الذي لا يغتذي بطعام أو شراب، كحياة الملائكة ، ثم حياة العلم من موت الجهل ، كما أشار القائل :

وفي الجهل ـ قبل الموت ـ موت لأهلـه
وأجسـامهم قبـل القبـور قبـورُ
وأرواحهـم في وحشـة مـن جسومهـم
فليس لهـم حتى النشـور نشـور

ثم حياة الارادة والهمة ، ثم قال الامام :

« المرتبة السابعة من مراتب الحياة حيـاة الاخـلاق ، والصـفات المحمودة التي هي حياة راسخة للموصوف بها ، فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمال ، ولا يشق عليه ، لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك ، بحيث

---

(١) سورة الفجر ، الآية ٢٤ .

لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته . فحياة من قد طُبع على الحياء والعفة والجود والسخاء ، والمروءة والصدق والوفاء ونحوها ، أتم من حياة من يقهر نفسه ، ويغالب طبعه ، حتى يكون كذلك . فان هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها ، وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك .

وكلما كانت هذه الاخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خُلق (الحياء) مشتقا من (الحياة) اسما وحقيقة ، فأكمل الناس حياة أكملهم حياء ، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته ، فان الروح اذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح فلا تستحيي منها، فاذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك فاستحيت منه .

وكذلك سائر الاخلاق الفاضلة والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة . ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان ، وحياة السخي أكمل من حياة البخيل ، وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة الفَدم البليد .

ولهذا لما كان الانبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ أكمل الناس حياة ، حتى ان قوة حياتهم تمنع الارض أن تُبلي أجسامهم ، كانوا أكمل الناس في هذه الاخلاق ، ثم الامثل فالامثل من أتباعهم » .

واذا كانت كلمة « الحياة » قد شغلت صفحات وصفحات من معجمات العربية الكبيرة كلسان العرب ، مما يدل على قوة احساسهم بشؤون الحياة وعنايتهم بما يتعلق بها ، فان مادة « الحياة » قد تكررت عشرات المرات في كتاب العربية الاقدس وهو القرآن المجيد ، والكثير من مواطن استعمالها يفيد معاني أخلاقية ، ومن ذلك قول الحق جل جلاله في سورة الأنعام :

« أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] .

وقد علق الرازي على الآية الكريمة بأن الارواح البشرية لها أربع مراتب في المعرفة ، فالاولى كونها مستعدة لقبول المعارف ، والارواح تختلف في درجات هذا الاستعداد ، فبعض الارواح لديها استعداد كامل قوي شريف ، وبعضها يكون استعدادها ضعيفا قليلا . والمرتبة الثانية أن يحصل لها العلوم الكلية الاولية ، وهي المسماة بالعقل . والمرتبة الثالثة أن يحاول الانسان تركيب البديهيات ليتوصل بتركيبها الى معرفة المجهولات الكسبية ، فاذا شاء استرجاعها واستحضارها قدر عليه اذا كانت غير حاضرة بالفعل ، والمرتبة الرابعة أن تكون تلك المعارف القدسية والجلايا الروحانية حاضرة بالفعل يستضيء بها جوهر ذلك الروح .

فالمراد بقوله تعالى : « فأحييناه » هو أن تحصل العلوم البديهية الكلية فيه . والمراد بقوله تعالى : « وجعلنا له نورا » هو تركيب البديهيات حتى يتوصل بتركيباتها الى تعرف المجهولات النظرية ، والمراد بقوله تعالى : « يمشي به في الناس » هو الاشارة الى كونه مستحضرا الجلايا القدسية ناظرا اليها .

ويمكن أن يقال : الحياة عبارة عن الاستعداد القائم بجوهر الروح ، والنور عبارة عن ايصال نور الوحي والتنزيل ، فانه لا بد في الابصار من سلامة الحاسة وطلوع الشمس ، والبصيرة لا بد فيها من أمرين : سلامة حاسة العقل ، وطلوع نور الوحي والتنزيل ، ولهذا قيل ان النور في الآية

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٢٢ .

يراد به القرآن ، أو نور الدين ، أو نور الحكمة ، والاقوال متقاربة .

ونفهم مع ابن القيم أن المراد بالميت في الآية السابقة هو من كان ميت القلب ، لانعدام روح العلم والهدى والايمان ، فيقبل فضل الله تبارك وتعالى فيجيبه بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه ، وهي روح معرفته وتوحيده ، ومحبته وعبادته وحده دون شريك ، فلا حياة لروح الانسان الحق ، الا بذلك ، والا فهي في عداد الأموات .

ولهذا وصف الله تعالى من عدم حياة الروح بقوله : «أومن كان ميتا» كما قال :

« إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ »[1] .

وسمى الله وحيه روحا لما يحصل به من حياة القلوب والارواح فقال عز شأنه :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتابُ ولا الإِيمانُ وَلَكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا » .

ولعله من هنا قد نصح لقمان ابنه فقال له : « يا بني ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الارض بوابل القطر » . وقال معاذ بن جبل : « العلم حياة القلوب من الجهل » .

* * *

(١) سورة النمل ، الآية ٨٠ .

ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة النحل :

« مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ » [1] .

ومن الواضح أن المراد بالحياة هنا ليس حياة الجسم والبدن ، وانما هي حياة للقلب والروح والهمة تتوثق علائقها بالمعاني الاخلاقية والروحية. ولقد ذكر القرطبي في تفسيره أن أقوال السلف تعددت في المراد بالحياة الطيبة هنا ، فالمراد القناعة ، أو التوفيق الى الطاعات ، أو حلاوة الطاعة ، أو أن يردّ العبد التدبير الى الله وحده ، أو الاستغناء عن الخلق والافتقار الى الحق ، أو الرضى بالقضاء . وأنت ترى معي أن أغلب هذه الاقوال ــ ان لم تكن جميعها ــ غير مقطوعة الصلة بمكارم الاخلاق .

واذا كان هناك من العلماء من يرى أن « الحياة الطيبة » يراد بها حياة الرزق الحسن ، فان الصواب كما يشرح ابن القيم انها حياة القلب ونعيمه وسروره بالايمان ، ولا حياة أطيب من ذلك الا نعيم الجنة ، ولذلك يقول بعض العارفين : انه لتمر بي أوقات أقول فيها : ان كان أهل الجنة في مثل هذا اني لفي عيش طيب . وقال غيره : انه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وهذه الحياة الطيبة تُنال بالهمة العالية ، والمحبة الصادقة ، والارادة الخالصة ، فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة ، وأخس الناس حياة أخسهم همة ، وأضعفهم محبة وطلبا ، وحياة البهائم خير من حياة هذا .

ويقول القرآن الكريم في سورة الانفال :

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٧ .

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُم لِما يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وأَنَّهُ إليهِ تُحْشَرُونَ » [1] .

أي أجيبوا الله تعالى ، وأطيعوه باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم اذا دعاكم لكل حق وصواب يكون فيه لكم الحياة الطيبة الدائمة ، ويدخل في ذلك القرآن والايمان والجهاد وكل أعمال البر . والواجب على المسلم أن يجيب الدعوة بعناية وهمة ، وعزيمة وقوة ، وانما يكون ذلك بحياة الانسان في قلبه وايمانه ، حتى تكمل الفطرة الانسانية في الدنيا ، وتستعد للحياة الابدية في الآخرة .

ونستنبىء « في ظلال القرآن » حول هذه الآية الكريمة فاذا هو يقول ان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس الى الحياة بكل معنى من معاني الحياة ... « يدعوهم الى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومن ضغط الاوهام والاساطير ، ومن رق التقليد وجمود التقاليد .

ويدعوهم الى شريعة تحيي الافراد والجماعات ، وتهيىء للجميع حياة كريمة متكافلة عادلة ، يأمن فيها كل انسان على دمه وعرضه وماله ، ويطمئن فيها الى عدالة التشريع والقضاء ، وكفالة المجتمع والدولة ، وسعادة الدنيا والآخرة . ويدعوهم الى القوة والعزة، والثقة بدينهم وبربهم، ومكافحة الظلم والبغي والفساد ، على ثقة بالنصر من عند الله الذي يتولى الصالحين .

ويدعوهم الى الجهاد لاعلاء كلمة الله ، وقد يصيبهم الموت في هذا

---

(١) سورة الانفال ، الآية ٢٤ .

الجهاد ، ولكن في الاستشهاد حياة : حياة عند الله للشهداء ، وحياة لأمتهم في الارض واستعلاء ، وهكذا دعاهم الى الموقعة التي أحيتهم وأعزتهم ، وأحيت الاسلام وركزت رايته على الاجيال .

ان الاسلام دين حياة لا عقيدة انعزال ، دين ايجابي تنمو الحياة في ظله وترتقي ، لأنه يسبق خطى البشرية دائما ، ويقودها في مدارج التعمير والانشاء ، والتطور والارتقاء . انه نظام كامل لحياة كاملة ، وليس مجرد عقيدة روحية للتهذيب والارشاد . انه يأخذ من الحياة ويعطي ، ويدفع بالحياة الى الامام محكومة بنظامه الذي لم تعرف له البشرية نظيرا منذ كان الانسان » .



ويقول الحق جل جلاله في سورة البقرة :

« ولا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ » [1] .

ما هذه الحياة التي يحياها المقتول في سبيل الله ؟. قيل انها حياة يجعل الله بها الروح في جسم آخر يتمتع به ويرزقه ، كما يشير الى ذلك الحديث القائل : « ان أرواح الشهداء في صور طيور خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله يوم القيامة » . وقيل : انها حياة الذكر الحسن والثناء بعد الموت ، وقيل ان المراد بالموت والحياة هنا الضلال والهدى ، وقيل انها حياة روحانية محضة .

ويرى الامام محمد عبده ان هذه الحياة حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس ، بها يرزقون وينعَّمون ، ولكننا لا نعرف

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٤ .

حقيقتها ، ولا حقيقة الرزق الذي يكون بها ، ولا نبحث عن ذلك لانه من عالم الغيب الذي نؤمن به ونفوض الامر فيه الى الله تعالى .

وقد ورد في القرآن ما هو قريب من معناه من الآية الماضية ، وهو قول الله تعالى في سورة آل عمران :

« وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » (١) .

وفي سورة البقرة جاء قول الله عز شأنه :

« أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُم أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ علَى النَّاسِ ولكِنَّ أَكْثَرَ الناسِ لا يَشْكُرونَ » (٢) .

ان هؤلاء القوم قد أصيبوا بالجبن فصارت حياتهم ضعيفة رخيصة كأنها لا حياة ، وقد تمكن أعداؤهم منهم ـ كما يفصل الحديث تفسير المنار ـ ففتك بهم ، ثم أحياهم بفضله ، والمراد بيان سنته تعالى في الامم التي تجبن عن مدافعة المعتدين عليها ، ومعنى موت هؤلاء القوم هو أن عدوهم نكل بهم فأذهب قوتهم ، وأزال استقلال أمتهم ، حتى صارت لا تعد أمة ، حيث تفرق شملها ، وذهبت جامعتها ، فكل من بقي من أفرادها تراهم خاضعين للغالبين ضائعين فيهم ، لا وجود لهم في أنفسهم ، بل وجودهم تابع لغيرهم ، وحياتهم هي عودتهم الى الاستقلال والعزة ، ومن رحمة الله أن يصيب الناس بالبلاء تمحيصا لهم وتطهيرا لنفوسهم مما أصابها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٤٣ .

من دنس الرذائل والقبائح ، وقد أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف والجبن والتخاذل فجمعوا كلمتهم ، حتى عادت اليهم وحدتهم القوية فخرجوا من ذل العبودية الى عزة الحرية ، وهكذا يموت أفراد باحتمال الذل والظلم حتى كأنهم أموات ، ويحيا أفراد بتدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت .

واطلاق « الحياة » على الحالة المعنوية الاخلاقية الشريفة في الامم والافراد شيء معروف مألوف في لغة العرب ، ومنه قوله تعالى :

« يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ »[1] .

وشتان ما بين حياة وحياة . ان لله عبادا يحيون الحياة الكريمة العظيمة التي تتألق فيها قلوبهم وارواحهم وعزائمهم ، وهناك أقوام يحيون حياة البهائم ، حسبهم الحس والحركة والاكل كما تأكل الانعام ، وهذا يذكرنا بقول الله تعالى عن اليهود في سورة البقرة :

« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناسِ على حياةٍ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ واللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ »[2] .

وقد جاءت هذه الآية في اليهود الذين عرفهم الناس بحرصهم على الحياة ، حتى ولو كانت حياة شقية حقيرة ، فهم يتمنون من اعماقهم وبألسنتهم أن تطول أعمارهم ، وقد فاقوا في هذا الحرص سواهم من الناس

---

(١) سورة الانفال ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .

ومن بعض المشركين الحريصين على الحياة، فالواحد منهم يتمنى لو يعيش ألف سنة أو أكثر ، مع أن طول عمره ــ مهما امتد ــ ليس منقذا له من العذاب المعد له في الآخرة ، لأنه ميت لا محالة ، ولأنه ملاق ربه لا مفر ، والله محيط بكل أعمالهم لا يغيب عنه شيء منها .

وقد تحدث ابن القيم عن الوسائل التي تحقق الحياة الاخلاقية الفاضلة عند الانسان ، ونوجز هذه الوسائل في عدة أمور منها :

١ ــ معرفة الله تعالى ، والاهتداء الى طريقه ، والقيام بالمأمورات ، والانتهاء عن المنهيات ، في الظاهر والباطن .

٢ ــ محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتبع أخباره ، وتلمس سننه ، والسير على طريقته في حب واجلال .

٣ ــ الاقبال على القرآن الكريم ، والاتقان لترتيله وتدبره ، واستنباط معانيه والاستجابة لدواعيه . فالوحي ــ وهو القرآن المجيد ــ حياة الروح، كما ان الروح حياة البدن ، ومن فقد هذه الروح القرآنية فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة .

٤ ــ استحضار صفات الله ذات الجلال والجمال والكمال .

٥ ــ شهود صفة « الحياة الكاملة » في الله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

٦ ــ أن يتقرب الانسان الحي الى ربه تعالى حتى يجد طعم قوله في الحديث القدسي : « لا يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، وان استعاذ بي لأعيذنه » .

والحذر كل الحذر من الانغمار في الشهوات والملذات ، فان حياة القلب والروح والبصيرة يضعفها هذا الانغمار ويقضي عليها ، وكيف يصل الى تلك الحياة الفاضلة من هو أسير الشهوات والنزوات ؟

وهذا عبدالله المبارك رضي الله عنه يقول :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذلّ ادمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين الا الملو ك ، وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس ولم يربحوا ولم يغل في البيع أثمانها
فقد رتع القوم في جيفة يبين لذي اللب خسرانها

اللهم هبنا الحياة العليا وباعدنا عن الحياة الدنيا ، وأحي قلوبنا بنورك يا نور السموات والارض .

التقديـر

التقدير في الأصل معرفة قدر الشيء وكميته ، وتقدير الأمر هو التمهل فيه والتروي في انجازه ، وفي مادة « التقدير » معنى الاحكام والاتقان ، كما يقول القرآن الكريم في سورة سبأ :

« أَنِ اعْمَلْ سابِغَاتٍ وقدِّرْ في السَّرْدِ »(١) .

أي أحكم صنعتك في نسج الدروع . وفي المادة أيضا معنى الشرف والعلو في المكانة ، ولعل هذا بعض السر في تسمية القرآن ليلة نزوله العظيمة باسم ليلة القدر :

« وَمَا أَدراكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ ، لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِن أَلْفِ شهرٍ »(٢) .

والتقدير من الانسان على وجهين : أحدهما التفكر في الامر بحسب العقل وبناء الامر عليه ، وذلك أمر محمود ، وهو قريب من المعنى الاخلاقي الذي نريده حين نقول ان « التقدير » خلق من أخلاق القرآن

(١) سورة سبأ ، الآية ١١ .
(٢) سورة القدر ، الآية ٢ و٣ .

الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدى الرسول عليه الصلاة والتسليم .

والوجه الثاني أن يكون التقدير بحسب التمني والشهوة ، وذلك مذموم ، كقول القرآن في سورة المدثر :

« إِنهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كيف قَدَّرَ » (١) .

وقد قيل : ان التقدير يعقب التفكير ، لأن الانسان ينظر في الأمر ويفكر فيه ويتدبره ، ثم يرتب في نفسه ما يتعلق به ، ويهيىء له في نفسه ما يناسبه ، فذلك هو التقدير .

ونقول : قدّر الله الامور تقديرا ، أي دبرها ، أو أراد وقوعها بحسب تدبيره ومشيئته ، وجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص ، حسبما تقتضي الحكمة .

ومما يسمو بمكانة صفة « التقدير » أن الله تبارك وتعالى وصف ذاته القدسية بها ، وأشرف الاسماء والصفات ما كانت منسوبة الى الله جل جلاله ، ومن فضله على عباده أن زانهم بطائفة من الصفات جاءت أسماؤها كأسماء طائفة من أسماء الله الحسنى ، وان كانت معاني هذه الصفات بالنسبة الى الله سبحانه تختلف اختلافا جوهريا عن صفات العباد، كما يختلف الخالق عن المخلوق :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » (٢) .

ان القرآن الكريم يقول في سورة الأعلى :

---

(١) سورة المدثر ، الآية ١٨ و١٩ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ١١ .

« والَّذي قَدَّر فَهدَى » [1] .

أي أعطى الله كل شيء ما فيه مصلحته ، ووجَّه كل مخلوق الى ما ينبغي له ، وهداه لما فيه خلاصه ، اما بالتسخير واما بالتعليم ، كما قال :

« أَعْطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدَى » [2] .

ويقول التنزيل المجيد في سورة الرعد :

« اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ، وما تَزْدادُ وكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » [3] .

أي كل شيء عنده بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله :

« إنا كُلَّ شيءٍ خَلَقْناهُ بَقَدَرٍ » [4] .

وقوله في الفرقان :

« وخَلَق كُلَّ شيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » [5] .

أي دبر الامور ، أو جعل كل شيء ينهج منهجا صالحا له في الحياة .

ويحتمل أن يكون المراد من قوله : « وكل شيء عنده بمقدار » أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصَّل المبين ، ويحتمل أن

---

(١) سورة الاعلى ، الآية ٣ .
(٢) سورة طه ، الآية ٥٠ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٨ .
(٤) سورة القمر ، الآية ٤٩ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية ٢ .

يكون المراد أن الله تعالى خصص كل حادث بوقتٍ معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية .

ويقول القرآن الحكيم في سورة يونس :

« هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ منازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ والحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلا بِالحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(١) .

وهذه الآية الكريمة تتضمن الاشارة الى مكانة التقدير في الامور والتدبير للاشياء ، ولعل هذا يتضح لنا من عبارة الفخر الرازي حين يقول : « اعلم ان انتفاع الخلق بضوء الشمس ونور القمر عظيم ، فالشمس سلطان النهار ، والقمر سلطان الليل ، وبحركة الشمس تنفصل السنة الى الفصول الاربعة ، وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم ، وبحركة القمر تحصل الشهور ، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم ، وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل ، فالنهار يكون زمانا للتكسب والطلب ، والليل يكون زمانا للراحة ، وقد استقصينا منافع الشمس والقمر في تفسير الآيات اللائقة بها فيما سلف ، وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم .

فاننا قد دللنا على أن الاجسام متساوية ، ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين وخيره المعين وصفته المعينة ، ليس الا بتدبير مدبر حكيم رحيم ، قادر قاهر ، وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم ، بسبب حركات الافلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب ، ما حصل الا بتدبير المدبر المقدر ، الرحيم

---

(١) سورة يونس ، الآية ٥ .

الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ثم انه تعالى لما قرر هذه الدلائل حتمها بقوله : « مـا خلق الله ذلك الا بالحق » ومعناه انه تعالى خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة ، ونظيره قوله تعالى في سورة آل عمران :

« وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، رَبَّنَا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحَانَكَ » [1] .

وقال في سورة ص :

« ذَلِكَ ظَنُّ الذينَ كَفَرُوا » [2] .

وتقدير الله لمنازل القمر معناه أنه حدد سيره في منـازل معينـة ، بنظام معين ، ومواقيت معينة ، بعلم وحكمة ورحمة ، ومن هـذا يتعلـم الانسان العاقل أنه ينبغي له أن يتصرف في أموره المختلفة بتدبير وتقدير ، وأن يصاحب التمهل والأناة ، حتى تثمر له فضيلة التقدير الخير الكثير في دينه ودنياه .

ويقول التنزيل المجيد في سورة الأنعام :

« فالِقُ الإِصْباحِ وجَعلَ اللَّيْلَ سَكَناً والشمسَ والقَمَرَ حُسْباناً ، ذلكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العَلِيمِ » [3] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .
(٢) سورة ص ، الآية ٢٧ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ٩٦ .

واسم « العزيز » اشارة الى كمال قدرته ، واسم « العليم » اشارة الى كمال علمه ، ولا شك أن تقدير أجرام الافلاك بصفاتها المخصوصة وهيئاتها المحددة وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة، لا يمكن تحصيله الا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات .

فقوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » يفيد أن ذلك الخلق المحكم مع ذلك التنسيق المتقن هو تقدير الله الخالق ، الذي وضع المقادير والانظمة مما اقتضاه علمه الواسع ، فهو الفاعل لما يشاء ، على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدا عليه ، ولا ناقصاً عنه : « فقدرنا فنعم القادرون » .

ويقول القرآن في سورة الحجر :

« وإنْ مِن شيءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »[1] .

أي يصرّف المخزون في خزائنه ــ كالمطر ــ الى من يشاء حيث شاء كما شاء ، في وقت مقدر ، في حيز معين ، بصفات معينة : « قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

واذا كان الله جل جلاله قد وصف ذاته بالتقدير المقرون بالعلم والحكمة والرحمة والقدرة ، فانه من فضله يعلم عباده ويدعوهم الى فضيلة التقدير في مواطنها المناسبة ، فهو مثلا يدعو عباده الى التقدير في الانفاق، فيقول في سورة الاسراء :

« وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولةً إلى عُنُقِكَ ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٢١ .

الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبيراً بصيراً »[1] .

أي لا تجعل يدك كالمغلولة فهي تمسك عن الانفاق وتبخل به ، ولا تتوسع في الانفاق توسعا مفرطا ، بل سر في ذلك بتدبير وتقدير :

« والذينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكانَ بينَ ذلكَ قَواماً »[2] .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، يوجه أتباعه الى فضيلة « التقدير » وهي القائمة على التبين والتمهل ، وعلى الحكمة والروية ، وعلى الاتقان والأحكام ، وعلى المسير في الحياة باعتدال وتدبر ، فيقول : « سددوا وقاربوا » . ويقول ــ فيما يروي الترمذي ــ : « الاناة من الله ، والعجلة من الشيطان » . ويقول ــ فيما يروي أبو داود ــ : « التؤدة في كل شيء خير ، الا في عمل الآخرة » .

ويقول أبو الدرداء : « حسن التقدير في المعيشة أفضل من نصف الكسب ».

وقال خالد بن صفوان : « لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلبوها الى غير أهلها ، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل ، فتكونوا للمنع خلقاء» . ولا يستطيع أن ينتفع بهذه النصيحة على وجهها الا من تحلى بفضيلة « التقدير » المستضيئة بعمق التفكر وحسن التدبير .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٢٩ و٣٠ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٧ .

وقال حكيم لأبنه : « اجعل لاقتصادك سلطة على افراطك ، فانك اذا قدرت الامور على ذلك ، وزنتها بميزان الحكمة ، وقومتها تقويم الثقاف ، لم تجعل للندامة سلطانا على الحلم » .

ومن أجمل ما قرأت في الحث على فضيلة التقدير للامور ، والنظر الى العواقب ، والموازنة بين الاشباه والنظائر ، والتلفت الى مختلف جوانب الامور ما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابنه الحسن ، في وصيته المشهورة التي كتبها اليه وهو منصرف من بلدة « حاضرين » ناحية صفين ، حيث يقول له فيها :

« واعلم أن أمامك طريقا ذات مسافة بعيدة ، ومشقة شديدة ، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد . وقدّر بلاغك من الزاد ، مع خفة الظهر ، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالا عليك .

واذا وجدت من أهل الفاقة (الفقر) من يحمل لك زادك الى يوم القيامة ، فيوافيك به غدا ، حيث تحتاج اليه ، فاغتنمه وحمّله اياه ، وأكثر من تزويده وأنت قادر ، فلعلك تطلبه فلا تجده ، واغتنم من استقرضك في حالة غناك ، ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك .

واعلم أن أمامك عقبة كؤودا (صعبة) المخف فيها أحسن حالا من المثقل ، والبطيء عليها أقبح حالا من المسرع ، وأن مهبطك بها ـــ لا محالة ـــ على جنة أو على نار .

فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطّىء المنزل قبل حلولك ، فليس بعد الموت مستعتب ، ولا الى الدنيا منصرف » .

ما أروعها من كلمات عميقة دقيقة ، تصور فضيلة التقدير كأنها الحلية الاساسية النفيسة للعقلاء وما أشد حاجة الناس الى هذه الفضيلة النادرة . ان الناس محتاجون الى التقدير في التفكير ، حتى لا يجمح بهم

جامح من الحمق أو الطيش أو سوء النظر .

وما أشد حاجة الناس الى التدبير في التعبير ، حتى يجعلوا لسانهم من وراء عقولهم ، لا أن يجعلوا عقولهم خلف ألسنتهم ، ولو لزموا التدبير في القول والمنطق ، لما ندت عن أفواههم كلمات فيها ما هو أشد من العورات ، ولما صدرت عن ألسنتهم جراح أنكى من اصابة السلاح .

وما أشد حاجة الناس الى التقدير في الاكل والشرب والثياب واللهو ، حتى لا يصيبهم وبال الجموح والاسراف ، فيكونوا داعية الخراب والدمار :

« وإِذَا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً »[1] .

ولله در القائل :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها　　فمن علا شرفا عن غرة زلجا

وقول الآخر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته　　وقد يكون مع المستعجل الزلل

اللهم انا نسألك ــ وأنت القادر المقدر ــ أن تهبنا نعمة التقدير والتدبير ، انك على كل شيء قدير .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ١٦ .

المـودة

المودة من الود ، وهو محبة الشيء وتمني كَونه ، والتمني يتضمن معنى الود لأن التمني هو تشهي الانسان حصول ما يوده . ويقال : ودّ فلان الشيء : أي أحبه وهويه وتمنى وقوعه . ووادّ فلان فلانا : أي أحبه ومال اليه وألفه . ومن أسماء الله الحسنى اسم « الودود » ، وهو على وزن فعول بمعنى مفعول ، فهو مودود ، أي محبوب في قلوب أوليائه . ويجوز أن يكون على وزن فعول بمعنى فاعل ، أي أنه يحب عباده الصالحين ، بمعنى أنه يرضى عنهم .

وفي سورة هود يقول الحق جل جلاله :

« واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » (١) .

أي يضاعف الاحسان والانعام لأوليائه ، ويغمرهم برضائه ، وكأن مودة الله تبارك وتعالى ينبغي أن يقابلها استغفار العبد من سالف الذنوب.

---

(١) سورة هود ، الآية ٩٠ .

والتوبة الى الله فيما يستقبل من الاعمال السيئة . فالله ودود لمن استغفر وتـاب .

وفي سورة البروج :

« وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ »[1] .

أي المحب لعباده الصالحين ، كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة. أو الذي يوده هؤلاء العباد ويحبونه :

« رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ »[2] .

وقد ذكر الرازي لكلمة « الودود » عـدة أقوال : أولهـا المحب . وثانيها المتودد الى أوليائه بالمغفرة والثواب . وثالثها أنه محبوب من عباده الصالحين ، لما عرفوا من كمال في ذاته وصفـاته وأفعالـه . ورابعهـا أن الودود هو الحليم .

ونفهم من حديث القرآن الكريم أن المودة الطاهرة خلق من أخـلاق القرآن وفضيلة من فضائل الاسلام . وهاهوذا التنزيل المجيد يخبرنا أن هذه الفضيلة نعمة من الله على الاخيار من خلقه . فهو يقول في سورة مريم :

« إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً »[3] .

أي سيرزقهم محبة في القلوب . وذلك بشارة بسعة الاسلام وبسط سلطانه ، ومحق المنافقين الذين يضمرون البغض للمؤمنين . أو أن ذلـك يكون يوم القيامة ، اذ يتآلف المؤمنون . ولا يكون في قلوبهم غل .

(١) سورة البروج ، الآية ١٤ .
(٢) سورة البينة ، الآية ٨ .
(٣) سورة مريم ، الآية ٩٦ .

وقيل ان المراد بالود هنا هو مراعاة الله لهم ، ويروي الاصفهاني أن الله تعالى قال لنبيه موسى عليه السلام : « اني لا أغفل عن الصغير لصغره، ولا عن الكبير لكبره ، وأنا الودود الشكور » .

ولكن المعنى الاول أوضح ، لأن الله تعالى يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات محبة ومودة في قلوب عباده الصالحين ، بدليل قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ان الله اذ أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل اني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الارض .

وان الله اذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال له : يا جبريل ، اني أبغض فلانا فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يبغض فلانا فابغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الارض ».

ويقول القرآن في سورة الروم :

« وَمِنْ آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إليها وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتفكَّرونَ » (١) .

أي خلق لكم من جنسكم اناثا يكن لكم زوجات لتسكنوا اليهن ، وتجدوا لديهن الأمان والاطمئنان والائتلاف ، وجعل بينكم وبينهن محبة ورأفة .

والمودة بين المسلمين أمر واجب ، لأن الله جل جلاله يقول :

« وَالمُؤْمِنُونَ والمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ » (٢)

---

(١) سورة الروم ، الآية ٢١ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وخير من يستحق المودة هم أقارب الرسول عليه صلوات الله وسلامه وهو في أولهم ، ولذلك يقول القرآن في سورة الشورى :

« قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » [1] .

أي اني لا أسألكم على ما أدعوكم اليه أجرا . الا آن تودوني لقرابتي منكم . فأنتم قومي ، وأحق من أجابني وأطاعني . فاذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ، ولا تؤذوني ولا تهيّجوا عليّ .

أو لا أسألكم على الايمان أجرا الا أن تودوا أقاربي .

أو لا أسألكم الا أن تتوددوا الى الله فيما يقربكم منه . وذلك من التودد اليه بالعمل الصالح .

ويفتح القرآن أمامنا باب الامل والاطماع في اصطناع المودة فيخاطب المؤمنين في شأن الكافرين فيقول في سورة المتحنة :

« عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [2] .

وهذه المودة تبدأ أو تنشأ بأن يسلم هؤلاء الكافرون فيصبحوا اخوة للسلمين ، وقد تحقق هذا فعلا حيث أسلم قوم منهم وخالطوا المسلمين ،

---

(1) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .
(2) سورة المتحنة ، الآية ٧ .

كأبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام • وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فاسترخت شكيمته في العداوة ، ولانت منه العريكة ، فكان ذلك تمهيدا لاسلامه عند فتح مكة •

وكذلك فتح الله باب المودة بين المسلمين وغيرهم ممن عرفوا الحق واهتدوا الى نوره ، فيقول القرآن في سورة المائدة :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى . ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ .وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) . [1]

والمودة التي يباركها القرآن المجيد يجب أن تكون على طهارة واخلاص ، والا كانت نفاقا ومراءاة ، ولذلك يقول القرآن في سورة القلم:

« فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » [2] .

فهم من نفاقهم تمنوا لو تلين فيلينون لك ، أو ودوا لو ركنت اليهم وتركت الحق فيمالئونك ، أو ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٢ و٨٣ .

(٢) سورة القلم ، الآية ٨ و٩ .

ومن هنا تنشأ المودة الحقيقية الصادقة من القلب ومن أعماق الانسان. ولقد تتباعد الاشباح ويتواد مع ذلك الارواح ، والرسول عليه الصلاة والسلام يشير الى ذلك حين يقول : « الارواح جنود مجندة . فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » • وشوقي يقول :

فان القرب بالروح وليس القرب بالجسم

ولقد كتب أبو الدرداء الى سلمان رضي الله عنهما ، يقول : « القرابة تُقطع (يقطعها بعض أهلها . والمعروف يُنكَر) (ينكره بعض الناس) ولم يُرَ كتقارب القلوب » •

وأبو تمام الطائي يؤكد أن المودة من شأن القلوب لا الاجساد فيقول:

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة
واخوتي أسوة عندي واخواني
عصابة جاورت آدابهم أدبي
فهم، وان فُرِّقوا في الارض، جيراني
أرواحنا في مكان واحد وغدت
أبداننا بشآم أو خراسان

والكميت بن معروف يقول :

ما أنا بالنكس الدنيء ولا الذي
اذا صدّ عنه ذو المودة يقرب
ولكنه ان دام دُمتُ ، وان يكن
له مذهب عني فلي عنه مذهب
ألا ان خير الود ودّ تطوعت
به النفسُ ، لا ود أتى وهو متعب

وعبدالله بن عبدالله بن عتبة يقول :

أبن لي ، فكن مثلي ، أو ابتغ صاحبا
كمثلك ، اني مبتغ صاحبا مثلي
عزيز اخائي ، لا ينال مودتي
من القوم الا مسلم كامل العقل
وما يلبث الاخوان أن يتفرقوا
اذا لم يؤلف روحُ شكل الى شكل

وكتب صديق الى صديقه يقول له : « اني صادقتُ منك جوهر نفسي ، فأنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام ، لأن النفس يتبع بعضها بعضا » .

ومن هنا قال أحد الاعراب : « لا يظهر الود السليم ، الا من القلب السليم » . ولذلك كان من شأن المودة الصادقة أن تبقى وتدوم ، كما يقول القائل لصفيه :

فسر وأقم ، وقف عليك مودتي   مكانك من قلبي عليك مصون

وتحتاج هذه المودة ــ كي تبقى وتدوم ــ الى المعاتبة ، لأن العتاب انما يكون بين الاحبة ، وشوقي الحكيم يقول :

أما العتاب فبالاحبة أخلق   والحب يحلو بالعتاب ويصدق

ويقول آخر :

أعاتب ذا المودة من صديق   اذا ما رابني منه اجتناب
اذا ذهب العتاب فليس ود   ويبقى الود ما بقي العتاب

* * *

واذا كان الاخيار يودون لغيرهم الخير ، ويتمنون الكريم من

الرغبات ، فان القرآن الكريم قد عرض علينا كذلك أصنافا قد انحرفت رغباتهم ، وفسدت أمنياتهم . يقول كتاب الله تعالى عن اليهود في سورة البقرة :

« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » (١) .

ستجد هؤلاء اليهود أحرص على البقاء في الدنيا من سائر الناس ومن المشركين أيضا ، كأن الواحد منهم قد اتخذ من هذا التعمير في الدنيا حبيبا له يوده ويحرص عليه ، وهذا عجيب ، لأن هؤلاء يزعمون ان لهم الجنة . فلم لا يتعجلون الرحيل اليها ان كانوا صادقين ؟. ان هؤلاء يودون أن يعمروا في الدنيا الى النهاية مع أن العمر لا بد له من الفناء مهما طال . والحرص على طول البقاء في الدنيا أمر مذموم ، الا اذا كان للازدياد من الطاعة وتدارك الفائت بالتوبة والانابة .

ويقول القرآن في سورة البقرة : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم » . تمنى كثير من أهل الكتاب — من اليهود — لو يرجعونكم معشر المؤمنين الى الكفر والضلالة ، بعد أن هداكم الله الى الايمان وجماله ، حسدا منهم لكم على ما أعده الله لكم من الخير والثواب .

وقيل ان هذه الآية نزلت في يحي بن أخطب وأخيه أبي ياسر ، دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم حين قدما الى المدينة . فلما خرجا قيل لحيي :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .

أهو نبي ؟. فجمجم قائلا : هو هو . فقيل له : فما له عندك . قال : عندي له العداوة الى الموت.

وجاء في سورة آل عمران :

« وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ »[1] .

تمنت جماعة من اليهود لو يهلكونكم بادخالكم في الضلال ودعوتكم اليه ، ولا يرجع وبال اضلالهم الا على أنفسهم ، ولا يلحق ضرره الا بهم ، لأن المسلمين لا يجيبونهم الى ما يدعونهم اليه من ترك الاسلام الى غيره . فيبقى عليهم اثم الكفر واثم الدعوة الى الكفر .

وفي سورة آل عمران أيضا :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ »[2] .

يا معشر المؤمنين ، لا تتخذوا الكافرين أولياء لكم من دون المؤمنين، فانهم لا يقصّرون في افساد أموركم ، ولا يتركون جهدهم في مضرتكم ، ولا يتقون الله في القائكم فيما يضركم ، وهم قد تمنوا ادخال الاذى والمشقة عليكم ، وقد ظهرت أمارة العداوة على ألسنتهم في فحوى كلامهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٨ .

وفلتات ألسنتهم ، وما تطويه صدورهم من البغضاء أكبر مما يبدونه بألسنتهم .

ومن هذا القبيل ما جاء في سورة النساء :

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُم أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا في سَبِيلِ اللهِ » (١) .

وما جاء فيها أيضا :

« وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً » (٢) .

والقرآن الكريم يؤكد أنه لا يجوز انشاء مودة بين المؤمنين والكافرين تؤدي الى الشر والضر ، يقول في سورة الممتحنة :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بما جاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيّاكُمْ ، أَنْ تُؤْمِنُوا باللهِ رَبِّكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جهاداً في سَبِيلي وَابْتِغاءَ مَرْضاتي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ وأَنا أَعْلَمُ بما أَخْفَيْتُمْ وما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ » (٣) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٢ .

(٣) سورة الممتحنة ، الآية الاولى .

نزلت الآية في شأن حاطب بن أبي بلتعة حينما بعث الى قريش برسالة مع امرأة يخبرهم فيها بأن الرسول في طريقه الى فتح مكة . يقول : « أما بعد ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه اليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو لم يسر اليكم الا وحده لأظفره الله بكم ، وأنجز له موعده فيكم ، فان الله وليه وناصره » .

فأخبر الله رسوله بأمر الرسالة ، وبعث وراء المرأة من أخذها منها وعاد بها الى رسول الله ، فأحضر حاطبا وسأله : يا حاطب ، ما هذا ؟

فأجاب : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، اني كنت أمرأ ملصقا في قريش — أي دخيلا عليهم — وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم ، فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أما صاحبكم فقد صدق .

فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فقال النبي : انه قد شهد بدرا ، وما يدريك ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

ويقول الله عز وجل في سورة المجادلة :

« لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُم أَو عَشِيرَتَهُمْ ، أُولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ

خالدِينَ فيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ »[1] .

ويعلق الرازي على الآية بقوله : « المعنى أنه لا يجتمع الايمان مع وداد أعداء الله ، وذلك لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب مع ذلك عدوه ، وهذا على وجهين :

أحدهما : أنهما لا يجتمعان في القلب ، فاذا حصل في القلب وداد أعداء الله لم يحصل فيه الايمان فيكون صاحبه منافقا . والثاني : انهما يجتمعان ، ولكنه معصية وكبيرة ، وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافرا بسبب هذا الوداد ، بل يكون عاصيا في الله .

فان قيل: أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحرمة المحظورة ؟. قلنا : المودة المحظورة هي ارادة منافعه دينا ودنيا مع كونه كافرا ، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه . ثم انه تعالى بالغ في المنع من هذه المودة من وجوه :

أولها ما ذكر أن هذه المودة مع الايمان لا يجتمعان . وثانيها : قوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، والمراد ان الميل الى هؤلاء أعظم أنواع الميل ، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوبا مطروحا بسبب الدين .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح ، قتل أباه عبدالله بن الجراح يوم أحد ، وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص ابن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وأبي بكر دعا ابنه يوم بدر الى البراز ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : متّعنا بنفسك . ومصعب بن عمير قتل

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ٢٣ .

أخاه عبيد بن عمير ، وعلي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة قتلوا عتبه وشيبه والوليد بن عتبة يوم بدر ، وأخبر أن هؤلاء لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضبا لله ودينه ... » الخ .

ويقول القرآن الحكيم في سورة آل عمران :

« لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإلى اللهِ المَصِيرُ » (١) .

لا ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء أصحاب مودة لهم ، أو أن يستعينوا بهم أو يلتجئوا اليهم ، ويجب أن تكون المودة والموالاة مع المؤمنين ، الا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخاف المؤمن ان لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم ، فعند ذلك يجوز له اظهار موافقتهم بلسانه ومداراتهم تقية منه ودفعا عن نفسه ، من غير أن يعتقد ذلك .

* * *

ولقد ورد ذكر المودة في سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ففي صحيح البخاري جاء قول الرسول : « ان أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام ومودته » . وانما لم يتخذ النبي أبا بكر خليلا لأن خلته ــ أي محبته التي تتخلل القلب فتصير في باطنه ــ كانت مقصورة على حب الله تعالى ، فليس فيها لغيره متسع ولا شركة ، وهذه حال شريفة لا ينالها

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٨ .

أحد بكسب أو اجتهاد ، وانما يخص الله بها من يشاء من عباده ، مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وينوه النبي عليه الصلاة والسلام بالمودة التي ينبغي أن يقوم بها الولد نحو من كان يودهم أبوه فيقول : « ان أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » . كما يشير الى المودة الطيبة التي تنشأ بين الزوج وزوجته حين يقول : « تزوجوا الودود الولود » .

ويتحدث أبو الحسين النووي عن أعلى أنواع المودة وهي محبة الله جل جلاله فيقول : « من وصل الى وده أنس بقربه ، ومن توسل بالوداد فقد اصطفاه من بين العباد » .

ويشير هرم بن حيان الى أن حب الله تعالى هو الطريق الى استقامة المحبة مع الناس فيقول : « ما أقبل عبد بقلبه الى الله الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه ، حتى يرزقه مودتهم ومحبتهم » .

اللهم هبنا حبك وحب من يحبك فانك أنت الرحيم الودود .

الافتقار الى الله

تقول اللغة ان الفقر ضد الغنى ، وأصل الفقير هو المكسور الفقار، أي خرزات الظهر ، وهي عظام منتظمة في النخاع ، ويقال : أصابته فاقرة، أي داهية تكسر الفقار . وقد عرّف العلماء الفقر بأنه فقد ما يحتاج اليه الانسان .

والمسلم الحقيقي لا يقبل الفقر ولا يرضى به ، ولا يذل نفسه لاحتياجه الى شيء مما في أيدي الناس ، ولكنه يجد لذة كبرى في الاحتياج الى الله ، والشعور بافتقاره دائما الى مولاه ، والاحساس المستمر بعدم الاستغناء عن الله ، حتى مع الاستغناء المادي بين الناس . فالفقر المراد في هذا المجال هو عين الغنى بالله ، لأنه ان ذل العبد لبارئه ومولاه . فهو غني عزيز على من سواه .

ويستعمل الفقر على أربعة أوجه :

الاول : وجود الحاجة الضرورية ، وذلك أمر عام للانسان ما دام في الدنيا ، ولذلك قال القائل : « وحاجات من عاش لا تنقضي » .

الثاني : عدم التملك ، أو عدم الاقتناء . مثل قوله تعالى :

«لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ

ضَرْباً في الأَرْضِ » [1] .

الثالث : فقر النفس ، وهو الشره المقصود بالحديث : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ، ويقابله الحديث : « الغنى غنى النفس » . وقول القائل: « من عدم القناعة لم يفده المال غنى » . وهذا يذكرنا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى معه الثاني ، ولو كان معه الثاني لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

الرابع : الفقر الى الله عز وجل . وهو المشار اليه بالحديث : « اللهم أغنني بالافتقار اليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك » . ولعلـه بعض المراد ـ والله أعلم ـ بقول القرآن الكريم على لسان موسى :

« رَبِّ إِنِّي لما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » [2] .

ومن ذلك الوادي قول القائل :

ويعجبني فقري اليك ، ولم يكن ليعجبني لولا محبتك الفقـر

والافتقار الى الله فضيلة قرآنية جليلة ، ذكر الله بها عباده ، ووجههم الى تذكرها واستشعارها والتحلي بها ، فقـال سبحانه في سـورة فاطر :

« يا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلى اللهِ ، واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ » [3] .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٧٣ .
(2) سورة القصص ، الآية ٢٤ .
(3) سورة فاطر ، الآية ١٥ .

فكل ما سوى الله مفتقر اليه ، وهو وحده الغني المحتاج اليه ، لا افتقار الا الى الله ، ولا اتكال الا عليه ، وهذه حقيقة يجب أن يعتقدها المسلم ويقررها ويقر بها ، ويسير في حياته بروحها وشعارها وهاهوذا التنزيل المجيد يعود الى تأكيدها في سورة محمد فيقول :

« واللهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ »[1] .

ويقول القرآن في سورة البقرة :

« إنْ تُبْدُو الصَّدَقَاتِ فَنِعِمّا هِيَ ، وَإنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »[2] .

والقرآن الكريم هنا يحفظ على الفقير المحتاج كرامته بعد أن يسد خلته ، فهو يدعو الى اعطاء الصدقات للفقير ، وهو أيضا يستحسن اخفاء هذه الصدقات حين اعطائها له ، حتى يستر على الفقير حاجته ، وحتى لا يعرضه لموقف قد يجرح شعوره وعاطفته .

ويقول القرآن في سورة البقرة أيضا :

« لِلْفُقَراءِ الَّذينَ أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً في الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أَغنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِن

---

(١) سورة محمد ، الآية ٣٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧١ .

خَيْرٍ فإنَّ اللَّهَ بهِ عَلِيمٌ » [1] .

يراد بهؤلاء الفقراء « أهل الصفة » الذي شغلوا أنفسهم بحفظ القرآن المجيد ، والخروج مع السرايا ، والصفة كالظلة وزنا ومعنى ، وهي موضع مظلل من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تكن لهم بيوت ولا مأوى ، لأنهم هاجروا بدينهم ، وخلفوا وراءهم أملاكهم وأموالهم مضطرين ، وحيل بينهم وبينها ، فهم محصرون في سبيل الله بهذه الهجرة، وبحبسهم أنفسهم على حفظ القرآن الكريم .

والمعنى ــ كما يقول أهل التفسير ــ ان الصدقات تعطى لهؤلاء الفقراء الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله ، أو حبسوا أنفسهم على طاعة الله ، أو حبسهم الفقر عن الجهاد ، أو لما جاهدوا أعداء الله أحصروا عن الضرب في شعاب الارض للكسب وطلب المعاش . وروي أن الصحيح أنهم لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربا في الارض لكمال عفتهم وصيانتهم ، ويحسبهم من لم يعرف حقيقتهم انهم أغنياء ، وهؤلاء هم الخواص أصحاب الفضيلة ، لأنهم أنزلوا حاجتهم بمولاهم ، ولم يفتقروا الا الى بارئهم سبحانه .

وقد ذكرت الآية الكريمة لهؤلاء الفقراء خمس صفات كريمة :

١ ــ الاحصار في سبيل الله ، أي حبس النفس في سبيل الله ، وهي سبيل الاعمال الجليلة المشروعة كالجهاد والعلم .

٢ ــ لا يستطيعون ضربا في الارض ، فهم عاجزون عن الكسب بسبب انشغالهم .

٣ ــ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف اذا رآهم لأنه يجهل حقيقة

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٣ .

أمرهم ، وذلك لتعففهم وتنزههم .

٤ ــ تعرفهم بسيماهم ، فيلوح لك منهم الخشوع والتواضع ، ويستطيع المؤمن بفراسته أن يدرك أنهم أهل استحقاق للانفاق عليهم .

٥ ــ لا يسألون الناس الحافا ، فلا يحلون في الاستجداء أو سؤال الناس .

وقد أراد الله تعالى ــ وهو أعلم بمراده ــ أن يبين أن هؤلاء أشد الناس استحقاقا لصرف الصدقة اليهم ، وقد نقل الامام الرازي في تفسيره عن عبدالله بن عباس رضوان الله عليهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف يوما على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، فطيب خاطرهم وقلوبهم ، فقال : أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن لقيني من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضيا بما فيه فانه من رفاقي .

ويقول القرآن الكريم في سورة الحشر : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » .

انظر كيف مجّد التنزيل العظيم ذكر هؤلاء الفقراء ، فوصفهم بأنهم مهاجرون ، وأنهم أخرجوا من ديارهم ببغي المشركين ، وأنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وأنهم ينصرون الله ورسوله بأنفسهم وأموالهم ، وأنهم صادقون في ايمانهم ، لأنهم هجروا لذات الدنيا ، وتحملوا شدائدها لأجل العقيدة والدين ، وهذه صفات جليلة نبيلة ، ومع ذلك قدم القرآن وصفهم بالفقر على بقية الصفات ، فكأنهم فقرهم تاج فضائلهم .

ويواصل القرآن المجيد عنايته بهؤلاء الفقراء المعتمدين على ربهم ، فيجعلهم أول مصرف من مصارف الزكاة في الاسلام فيقول في سورة التوبة :

« إنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمساكِينِ والعامِلِينَ عَلَيْها..[1]» الخ ...

ويتيح الاسلام للفقير المستقيم أن يأكل من مال اليتيم اذا أشرف الفقير على هذا اليتيم واحتاج الى هذا الاكل ، فيقول القرآن في سورة النساء :

« وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ »[2] .

وقد نزلت الآية في شأن الولي الفقير على مال اليتيم ، فله اذا كان محتاجا أن يأكل من مال اليتيم مقابل عمله له من غير اسراف ، وبلا طمع أو خيانة .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران :

« لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبياءَ بِغيْرِ حَقٍّ وَنَقولُ ذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ »[3] .

واذا كان الفقر المستقيم فضيلة في الانسان المؤمن ، فان الفقر لا يليق بجلال الله وكماله ، فهو أغنى الاغنياء ، ومن هنا جاء التهديد في الآية لأولئك المجرمين الذي نسبوا الفقر الى الله سبحانه .

ولقد رُوي عن ابن عباس في سبب نزول الآية أن أبا بكر دخل بيتا لليهود يتعلمون فيه ، فوجد طائفة منهم قد اجتمعوا الى رجل منهم يقال

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٦ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٨١ .

له « فنحاص » ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، فقال له أبو بكر :

ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا الى الله تعالى من فقر ، وانه الينا لفقير ، وما نتضرع اليه كما تضرع الينا ، وانا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا عنا لما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، وانه ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا عنا لما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله .

فذهب فنحاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انظر يا محمد ما صنع صاحبك بي !.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟.

فقال : يا رسول الله قال قولا عظيما ، يزعم ان الله ــ تعالى شأنه ــ فقير وهم عنه أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله تعالى مما قال فضربت وجهه.

فجحد فنحاص وأنكر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تصديقا لأبي بكر رضي الله عنه !.



ثم يأتي حديث الفقر الى الله عند الصوفية ورجال القلوب والارواح.

ان الفقر عندهم حسب تعبيرهم هو مرتبة التجرد ، وقطع كل علاقة تحول بين القلب وبين الله تعالى ولهذا الفقر لديهم مكانة وأي مكانة ، حتى يقول عنه أحدهم ، وهو ابراهيم بن أحمد الخواص ، كما جاء في

كتاب « اللمع » للطوسي :

الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج المتقين ، وزين المؤمنين ، وغنيمة العارفين ، ومنبه المريدين ، وحصن المطيعين ، وسجن المذنبين ، ومكفر للسيئات ، ومعظم للحسنات ، ورافع للدرجات ، ومبلغ الى الغايات ، ورضا الجبار ، وكرامة لأهل ولايته من الابرار ، والفقر هو شعار الصالحين ودأب المتقين !!.

وهم يرون ان الفقر هو تحقيق العبودية والافتقار الى الله في كل حال ، ولذلك قال يحيى بن معاذ : حقيقة الفقر أن لا يستغني الا بالله .

وقال رديم : الفقر ارسال النفس في أحكام الله .

وقال أبو تراب : حقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك ، وحقيقة الفقر أن تفتقر الى من هو مثلك .

وقال أبو الحسن المزين : من افتقر الى الله تعالى ، وصحح فقره اليه بملازمة آدابه ، أغناه الله عن كل ما سواه .

وقال أبو عثمان النيسابوري : صلاح القلب في أربع خصال : في التواضع لله ، والفقر الى الله ، والخوف من الله ، والرجاء في الله .

وقال أبو عبدالله الرازي : « الفقير الصادق هو الذي يملك كل شيء ، ولا يملكه شيء » . وهي كلمة مضيئة مشرقة تدل على قوة الارادة وبعد الهمة وعلو العزيمة ، وتذهب النفس مذاهب في تصور مدلولها .

ويرى الصوفية أن الافتقار الى الله يعني تسليم النفس الى بارئها ومالكها والمتصرف بها، ولذلك يقوم ابن القيم في «مدارج السالكين»: لما كانت نفس الانسان ليست له ، وانما هي ملك لله ، فما لم يخرج عنها ويسلمها لمالكها الحق : لم يثبت له في الفقر قدم ، فلذلك كان أول قدم

الفقر الخروج عن النفس ، وتسليمها لمالكها ومولاها ، فلا يخاصم لهـا ، ولا يتوكل لها ، ولا يحاجج عنها ، ولا ينتصر لها ، بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها .

ويا له من مقام !!..

ولقد قيل لبعض الصوفية : متى يستحق الفقير اسم الفقر ؟.

فقال : اذا لم يبق عليه بقية منه .

قيل له : وكيف ذاك ؟.

قال : « اذا كان له فليس له ، واذا لم يكن له فهو له » !.

وقد استهوت هذه العبارة الامام ابن القيم ، واستحوذت على جانب من اعجابه ، فقال يعلق عليها :

« وهذه من أحسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير اليه القوم ، وهو أن يصير كله لله عز وجل ، لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه، فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول .

ثم فسر ذلك بقوله : « اذا كان له فليس له » أي اذا كان لنفسه فليس لله ، واذا لم يكن لنفسه فهو لله . فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لك منها شيء ، بحيث تكون كلك لله ، واذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر .

وهذا الفقر الذي يشيرون اليه لا تنافيه الجدة ولا الاملاك ، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم وملكهم ، كابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم كان أبا الضيفان ، وكانت له الاموال والمواشي وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام ، وكذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم، كان كما قال الله تعالى :

« وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنَى »[1] .

فكانوا أغنياء في فقرهم ، فقراء في غناهم .

فالفقر الحقيقي دوام الافتقار الى الله في كل حال ، وأن يشهد العبد ـ في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة ـ فاقة تامة الى الله من كل وجه. فالفقر ذاتي للعبد ، وانما يتجدد له لشهوده ووجوده حالا . وإلا فهو حقيقة ، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه :

« الفقر لي وصف لازم أبدا ... كما ان الغنى أبدا وصف له ذاتي »

وقيل لأبي تراب : ألك حاجة ؟.

فأجاب السائل بقوله : يوم يكون لي اليك والى أمثالك حاجة ، لا يكون لي الى الله حاجة !!.

ولقد تحدث القوم عن الفرق بين « الفقير » و « الصوفي » ، وعن أيهما أفضل .

قالت طائفة بترجيح الصوفي على الفقير .

وقالت طائفة بترجيح الفقير على الصوفي .

وقالت طائفة : الفقر والتصوف شيء واحد .

وفضيلة الافتقار الى الله لا تنافي السعي والعمل والكسب الطيب الحلال . فمهما ملك المرء من رزقه الصافي فانه يظل شاعرا بحاجته الى ربه ومولاه ومفتقرا الى عونه وهداه ، ولذلك يقول أبو حفص : « أحسن ما يتوسل به العبد الى الله دوام الافتقار اليه على جميع الاحوال ، وملازمة السنة في جميع الافعال ، وطلب القوت من وجه حلال » .

---

(١) سورة الضحى ، الآية ٨ .

وحينما تتحدث عن الافتقار الى الله يرد على الخاطر السؤال المشهور: أيهما أفضل : الفقير الصابر أم الغني الشاكر ؟. والجواب عند بصراء العلماء هو ان التفضيل لا يرجع الى ذات الغنى والفقر ، وانما يرجع الى الاعمال والاحوال والحقائق ، فان التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الايمان ، لا بفقر ولا غنى ، وأكملهما عند الله أطوعهما لـه ، فان تساوت طاعتهما تساوت درجاتهما .

وقد يقال : كيف يُمدح الفقر والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : « أعوذ بك من الفقر » ، ويقول الامام علي : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ؟.

ويجيب الغزالي بأن الفقر الذي استعاذ منه الرسول هو فقر المضطر، وأما الفقر الذي هو الاعتراف امام الله بالمسكنة والافتقار اليه ، فهو الذي سأله النبي في دعائه حين قال :

« اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا » .

اللهم أغننا بالافتقار الدائم اليك ، ولا تذلنا بنقمة الحرمان منك ، انك رؤوف رحيم .

الاستجابـة

كلمة « الاستجابة » مأخوذة من مادة « الاجابة » ، والاجـابة هي الرد على الكلام . وأجاب الله الدعاء قابله بالعطاء والقبول ، ومن أسماء الله تعالى « المجيب » . وفي القرآن الكريم :

« إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ »[1] .

والاستجابة فيها معنى الاجابة من ناحية التلبية والقبول . يقـال : دعاني فاستجبته واستجبت له . واستجاب الله دعاء عبده واستجاب له . ولكن الاستجابة فيها معنى الاجابة بعناية واستعداد . وحقيقة الاستجابة هي التحري للجواب والتهيؤ له ، ويكمل معنى الاستجابة بالاجابة التامة عند عدم المانع .

والاستجابة ــ بالمعنى الاخلاقي ــ أي بمعنى التلبيــة والمسارعــة والموافقة لامر الله تعالى ورضاه ، خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هــدى الرسول عليــه الصــلاة والتسليم .

---

(١) سورة هود ، الآية ٦١ .

ومما يزكي شأن هذه الفضيلة ، ويرفع قدرها ، ويعطر ذكرها أن يوصف الله جل جلاله بأن المستجيب المجيب ، ففي سورة البقرة يقول الحق عز شأنه :

« وإذا سألكَ عِبَادِي عَنِّي فإني قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (١) .

أي فليستجيبوا لدعوتي ، بتحري ما أمرتهم به من الايمان والاعمال الصالحة ، فاني أجيب دعاءهم بقبول عبادتهم وتولي اعانتهم وتوفيق مسعاهم .

وفي سورة آل عمران يقول عن عباد الله المؤمنين الطائعين :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا في سَبِيلي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ثواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ » (٢) .

فقد استجاب الله دعاءهم لصدقهم في الايمان ، واخلاصهم في الدعاء ، واقبالهم على الله ، واستجابتهم له ، ووفى كل واحد منهم ثوابه وجزاءه ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولأن الاستجابة فضيلة أخلاقية قرآنية يزدان بها المسلم ويرتفع عن

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩٥ .

طريقها قدره طالب بها الله عباده، وحذرهم العاقبة الوخيمة التي تتهددهم اذا أغفلوها أو تركوها، فقال في سورة الشورى:

« اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ، مالَكُمْ مِنْ مَلْجإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَالَكُمْ مِنْ نكيرٍ »[1].

أي أجيبوه فيما أمر به، وسارعوا الى طاعته قبل أن يأتي اليوم المحتوم الذي لا بد منه ولا مفر عنه ــ وهو يوم الموت أو يوم القيامة. حيث لا ينفع عنده عمل، ولا توجد وسيلة للتخلص من عذاب الله. ولا يستطيع أحد أن ينكر شيئا مما اقترفه من أوزار.

ويؤكد كتاب الله المجيد الأمر بالاستجابة فيقول في سورة الأنفال:

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وللرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لما يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »[2].

والمعنى: يا أيها المؤمنون أجيبوا دعوة ربكم بهمة وعزيمة، وقوة وهمة، فانما يدعوكم الى ما فيه نفعكم وخيركم ومصلحتكم، والى ما تتحقق به حياتكم العاقلة الفاضلة، وما تكمل به فطرتكم الانسانية السليمة القويمة، ولا تنسوا ان الاستجابة لرسول الله جزء من الاستجابة لله.

« مَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ »[3]، « قُلْ إِنْ

(١) سورة الشورى، الآية ٤٧.
(٢) سورة الانفال، الآية ٢٤.
(٣) سورة النساء، الآية ٨٠.

كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » [1] .

وهذا تفسير « ظلال القرآن » يعلق على هذه الآية الجليلة بهذه الكلمات : « ان الاستجابة لله وللرسول انما هي استجابة لدواعي الحياة، فالرسول لا يدعو الناس الا الى الايمان بالله والعمل بشريعته ، تحكما فيهم ولا استعبادا لهم ، انما هو يدعوهم الى الحياة بكل معنى من معاني الحياة. يدعوهم الى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومن ضغط الاوهام والاساطير ، ومن رق التقليد وجمود التقاليد ، ويدعوهم الى شريعة تحيي الافراد والجماعات ، وتهيىء للجميع حياة كريمة متكاملة عادلة ، يأمن فيها كل انسان على دمه وعرضه وماله ، ويطمئن فيها الى عدالة التشريع والقضاء ، وكفالة المجتمع والدولة ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ويدعوهم الى القوة والعزة والثقة بدينهم وبربهم ، ومكافحة الظلم والبغي والفساد على ثقة بالنصر من عند الله الذي يتولى الصالحين . ويدعوهم الى الجهاد لاعلاء كلمة الله ، وقد يصيبهم الموت في هذا الجهاد، ولكن الاستشهاد حياة : حياة عند الله للشهداء ، وحياة لأمتهم في الارض واستعلاء . وهكذا دعاهم الى الموقعة التي أحيتهم وأعزتهم ، وأحيت الاسلام وركزت رايته على الاجيال .

ان الاسلام دين حياة لا عقيدة انعزال . دين ايجابي تنمو الحياة في ظله وترتقي ، لأنه يسبق خطا البشرية دائما ، ويقودها في مدارج التعمير والانشاء والتطور والارتقاء . انه نظام كامل لحياة كاملة ، وليس مجرد عقيدة روحية للتهذيب والارشاد . انه يأخذ من الحياة ويعطي ، ويدفع بالحياة الى الامام محكومة بنظامه الذي لم تعرف له البشرية نظيرا منذ كان الانسان .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

والتعبير يجمل هذا كله ، ويجمل معاني أخرى كثيرة وصـــورا شتى للحياة المتجددة تكمن كلها في كلمات قليلة :

« استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » ، فكل صورة من صور الحياة ، وكل معنى من معانيها المتجددة ، سواء كانت مستسرة في الضمير ، أو بادية للعيان ، كلها تتراءى من خلال العبارة المجملة وتنبض في الوجدان : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمـا يحييكم » .

ويمجد القرآن ذكر المؤمنين الذين تحلوا بفضيلة الاستجابة ، فدفعتهم الى مواصلة الجهاد والعطاء والفداء ، على الرغم من آلامهم وجراحهم ، فيقول عنهم في سورة آل عمران :

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ، الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيماناً وَقَالُوا حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ »[1] .

يقصد هؤلاء الذي سارعوا الى اجابة الرسول عليه الصلاة والسلام حين أمرهم بالخروج معه الى مواصلة الكفاح والنضال بعد غزوة أحد ، فان الرسول ندبهم ــ على الرغم من الآلام والجراح ــ الى الخروج لمتابعة آثار المشركين ، لأن المشركين بعد الغزوة تلاوموا في الطريق وهم عائدون من غزوة أحد ، وقال بعضهم لبعض :

لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، وتركتموهم وقد بقي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٢ و١٧٣ .

منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

فبلغ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، فنادى في الناس ، وحثهم على المسير وراء أعدائهم لمتابعة خطواتهم وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لا يخرج معنا الا من شهد القتال » .

فأحسن المسلمون الاستجابة لأمر الله والرسول ، برغم متاعبهم ومخاوفهم وجراحهم ، وكان ردهم : سمعا وطاعة . فسار بهم صلى الله عليه وسلم حتى بلغ بهم « حمراء الأسد » وهو موضع على ثمانية أميال من المدينة . وأقبل معبد الخزاعي نحو النبي فأسلم ، فأمره النبي أن يلحق بأبي سفيان زعيم المشركين حينئذ ، وأن يشيع فيه وفي رفاقه روح الخذلان ، فاستجاب معبد ، حتى لحق أبا سفيان عند مكان يقال له « الروحاء » ، على بعد قرابة أربعين ميلا من المدينة فلما رآه أبو سفيان سأله : ما وراءك يا معبد ؟.

فأجاب معبد مخذلا : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم.

فقال أبو سفيان : ما تقول ؟

أجاب معبد : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال معبد : فلا تفعل ، فاني لك ناصح .

وخاف أبو سفيان فانثنى عن عزمه ، ورجع مع رفاقه على أعقابهم الى مكة .

ومع هذا لقي أبو سفيان بعض العرب يقصد مكة فقال له : هل لك أن

تبلغ محمدا رسالة وأوقر لك راحلتك زبيبا اذا أتيت الى مكة ؟. قال الرجل : نعم .

فقال أبو سفيان : أبلغ محمدا أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه .

ولما بلغت هذه الرسالة النبي والمؤمنين قالوا في ايمان ويقين : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وهكذا تتألق منهم فضيلة الاستجابة لله رب العالمين .

ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما أراد الرجوع الى المدينة يومئذ ركب فرسه ، وأمر المسلمين أن يصطفوا فاصطفوا خلفه . وعامتهم جرحى ، واصطف خلفهم النساء ، وقال النبي : « استووا حتى أثني على ربي » .

وهنا ردد الرسول دعاء أخرجه أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم — وان تكلم فيه الذهبي — وجاء في دعاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الكلمات :

« اللهم لك الحمد ، لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت . ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مباعد لما قرّبت .

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . اللهم اني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم اني أسألك النعيم يوم العيلة (الفقر) ، والامن يوم الخوف .

اللهم اني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعت منا . اللهم حبّب الينا الايمان وزينه في قلوبنا ، وكرّه الينا الكفر والفسوق

والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ... » الخ .

ويتكرر نص القرآن الحكيم على أن الاستجابة من صفة المؤمنين الموفقين المقربين المقبولين ، فهو يقول مثلا في سورة الشورى :

« وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ ، وَالكافِرُونَ لَهُمْ عذابٌ شَدِيدٌ » (١) .

وانظر كيف قابل بين حزب الاستجابة الفائز ، وحزب الكفر صاحب العذاب الشديد .

ويقول في السورة نفسها :

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (٢) .

والله تعالى يذكر هذا ضمن صفات المؤمنين المتوكلين :

« وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ » (٣) .

وكأن القرآن المجيد يريد لنا أن نفهم أن أهل الاستجابة لله هم الذين يستحقون الوصف بأنهم أحياء . وأما المجردون من الاستجابة له فهم كالاموات ، ولذلك يقول في سورة الانعام :

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٢٦ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٣٨ .
(٣) سورة الشورى ، الآية ٣٦ .

« إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِليهِ يُرْجَعونَ »[1] .

والمعنى كما يذكر تفسير المنار هو : انما يستجيب لك أيها الرسول الذين يسمعون كلام الله الداعي اليه بآياته ، سماعَ فهم وتدبر . فيعقلون الآيات ، ويذعنون لما عرفوا فيها من الحق ، لسلامة فطرتهم واستقلال عقولهم ، دون أولئك الذين قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون . كالمقلدين الجاحدين ، ودون أولئك الذين قالوا : سمعنا ، من المستكبرين الجاحدين. فأولئك موتى القلوب والارواح ، الذين هم أبعد عن الانتفاع من موتى الجسوم والابدان . وهؤلاء الموتى سيبعثهم الله يوم القيامة ، ويخرجهم من قبورهم ، ويلاقون سوء الحساب وأشد العذاب .

فالظاهر أن المراد بالموتى هم الكفار الراسخون في الكفر ، المطبوع على قلوبهم وأسماعهم، فلا ترجى استجابتهم ، وينبغي ترك أمرهم الى الله المنتقم القاهر ، فهو يبعثهم بعد موتهم ، ويجازيهم على كفرهم واعراضهم.

ولم يقتصر القرآن المجيد على التنويه بفضيلة الاستجابة والتكريم لأهلها ، بل ذكر العواقب السود التي تنتظر الذين أعرضوا عن الاستجابة. فهاهوذا يقول في سورة الاحقاف على لسان الجن :

« يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ، وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أولَئِكَ في

---

(1) سورة الانعام ، الآية ٣٦ .

ضلالٍ مُبِينٍ » [1] .

فالمحروم من الاستجابة يصيبه الضلال والوبال ، ويكون غرضا لغضب الله وحربه ، وليس له من نصير أو ظهير يحفظه من نقمة الله جل جلاله .

ويؤيد التنزيل الحكيم هذا الامر فيقول في سورة الرعد :

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَو أَنَّ لَهُمْ ما في الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ » [2] .

فأهل الاستجابة لهم الخصلة الحسنى أو الحالة الحسنى ، هم أهل الفوز والفلاح والنجاح ، والذي لا يستجيب له أنواع الحسرة والعقوبة.

ويعلق الرازي المفسر على الآية السابقة فيقول هذه العبارة : « واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الاشقياء ، أما أحوال السعداء فهي قوله : (للذين استجابوا لربهم الحسنى) . والمعنى ان الذين أجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله ، فلهم الحسنى . قال ابن عباس : الجنة. وقال أهل المعاني : الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن ، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة ، الدائمة الخالية عن الانقطاع ، المقرونة بالتعظيم والاجلال .

---

(١) سورة الاحقاف ، الآية ٣١ و٣٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٨ .

ولم يذكر « الزيادة » ههنا ، لأنه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى ، وهو قوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

وذكرت الآية أحوال الاشقياء عقب ذلك ، وهم الذين لم يعرفوا طريق الاستجابة ، وذكر أن لهم أنواعا من العذاب والعقوبة :

النوع الاول قوله « لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به » أي لو استطاعوا لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب ، وهيهات هيهات . يقول الرازي : « واعلم أن هذا المعنى حق ، لأن المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته ، وكل ما سواه فانما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته ، فاذا كانت النفس في الضر والالم والتعب ، وكان مالكا لما يساوي عالم الاجساد والارواح ، فانه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه ، لأن المحبوب بالعرَض لا بد وأن يكون فداء لما يكون محبوبا بالذات » .

النوع الثاني : هو قوله : « أولئك لهم سوء العذاب » ، لأن كفرهم أحبط أعمالهم ، وكل ما شغلك بالله وعبادته ومحبته فهي الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية ، وكل ما شغلك بغير الله ، فهي الحالة الضارة المؤذية الخسيسة . فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم في الاعراض عما سوى الله ، وفي الاقبال على عبادة الله . وأما الاشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء العذاب .

النوع الثالث : قوله تعالى : « ومأواهم جهنم » . وذلك لأنهم كانوا غافلين عن طاعة الله ، مشغولين بلذات الدنيا وشهواتها ، فمصيرهم ومقرهم دار العذاب ، وهي جهنم .



هذا ويذكر الطوسي في « اللمع » تفاوت الناس في الاستجابة لله والرسول والحق ، فيذكر صنفا سمع دعوة الله وأقر بها وقبلها ، ولكنه

شغله عن الاستجابة لها غفلته ومتابعته للنفس ، واختيار الحظوظ على الواجبات ، والميل الى الهوى والشهوة ، وفي مثل هذا يقول القرآن الكريم:

« وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً » .

وهناك صنف كريم ، سمع النداء فأجاب وأناب ، وعمل الصالحات ، واقترن بالطيبات ، وصدق في المعاملات ، وأخلص في القربات . وفي مثل هذا يقول كتاب الله تعالى :

« الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » .

وقد يدعو غافل ربه فلا تجاب دعوته ، لأنه ليس من أهل الاستجابة، فكيف يعامل بالاجابة ؟.

قيل لابراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟.

قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سننه ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الموتى فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس .

والاستجابة التي ندندن حولها مشروطة بأنها الاستجابة لله وللرسول ، لأنها استجابة الحق والصدق ، وهناك استجابة آثمة ظالمة ،

وهي الاستجابة لهواتف الشيطان ووساوس الخناس ، وعاقبة هذه الاستجابة شر عاقبة ، وحسبنا أن نسمع الحق جل جلاله يقول في سورة ابراهيم :

« وَقَالَ الشَّيْطانُ لما قُضِيَ الأَمْرُ إنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطان إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي ، فلا تَلُومُوني وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، ما أَنا بِمُصْرِخِكُمْ وما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [1] .

اللهم هبنا الاستجابة لك ولرسولك ، فانك نعم المولى ونعم النصير .

(1) سورة ابراهيم ، الآية ٢٢ .

الغنى بالله

في مادة « الغنى » معنى الكفاية والاجزاء ، ومعنى الاقامة والبقاء ، والغنى هو الكفاية وعدم الحاجة أو قلة الحاجة ، وقد يطلق على سعة التملك . والله جل جلاله هو المستغني بذاته وصفاته وأسمائه عن كل ما عداه ، والمفتقر اليه كل ما سواه ، والمغني : وهو الذي يغني بفضله من يشاء من عباده .

ويقول القشيري : « المغني معطي الغنى لعباده ، ويكون بمعنى معطي الكفاية أيضا . والله تعالى مغن عباده بعضهم عن بعض ، لأن الحوائج — على الحقيقة — لا تكون الا اليه ، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، فكيف يملك ذلك لغيره ؟.

ولذلك قيل : تعلّق الخَلق بالخَلق تعلق المسجون بالمسجون .

وقيل : من رفع حاجته الى الله تعالى ، ثم رجع عن حاجته اليه الى غيره ، ابتلاه بالحاجة الى الخَلق ، ثم نزع رحمته من قلوبهم . ومن شهد افتقاره الى الله تعالى ، فرجع اليه عند حاجته ، أغناه من حيث لم يحتسب، وأعطاه من حيث لم يرتقب .

واغناء الله تعالى عباده على قسمين : فمنهم من يغنيه بتنمية أمواله ،

وهم العوام — وهو غنى مجازا — ومنهم من يغنيه بتصفية أحواله ، وهم الخواص — وهو الغنى الحقيقي ، لأن احتياج الخلق الى همة صاحب الحال أكثر من احتياجهم الى لقمة صاحب المال » .

وهي عبارة تثير الذهن ليمضي في شؤون من الفكر وشجون .

ولا يستحق اسم « الغني » في الحقيقة الا الله عز شأنه، لأنهم عرّفوا وصف « الغِنى » بأنه « المُلك التام » ، فمن كان مالكا من وجه دون وجه ، فليس غنيا ، والله وحده هو « الغني » المالك من كل وجه ، وما سواه فهو فقير اليه . ولذلك قال ابن الاثير : الله الغني الذي لا يحتاج الى أحد في شيء ، وكل أحد يحتاج اليه ، وهـذا هو الغنى المطلق ، ولا يشارك الله تعالى فيه غيره ، وهو المغني الذي يغني من يشاء من عباده .

ولقد تحدثت في حلقة من سلسلة « أخلاق القرآن » عن فضيلة « الافتقار الى الله » . وقد يقول قائل : ألا يغني هذا الحديث عن الكلام عن : « الغنى بالله » ؟. والجواب عن هذا السؤال يوجد في عبارة للامام ابن القيم يقول فيها : « ومن منازل (اياك نعبد واياك نستعين) منزلة الغنى العالي ، وهو نوعان : غنى بالله وغنى عن غير الله ، وهما حقيقة الفقر ، ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنى منزلة » .

واذا كان الغنى بالله فضيلة من فضائل القرآن الكريم ، وجانبا من هدى الرسول الكريم ، فقد قالوا ان الغنى بالله درجات : درجة غنى القلب ، بمعنى تعلقه بالله وحده ، دون تعلق بغيره ، أو تطلع الى سواه ، ثم غنى النفس — والنفس من جنود القلب — وهو أن تصبح سالمة من تطلعها الى حظوظ الحياة ، وبراءتها من آفة المراءاة ، حيث لا تريد بأعمالها وأقوالها وأحوالها غير وجه الله ، وتدوم على التوجه الى الله ، والطلب منه وحده. ثم الغنى بالحق ، ورؤية الانسان جلال ربه قبل كل شيء .

وقد تكرر وصف الله تعالى في القرآن المجيد بوصف « الغني » عدة مرات في سورة البقرة جاء قوله تعالى :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ » .

وفي الاسمين الكريمين : «غني حليم» تنفيس لكرب الفقراء، وتعزية لهم ، وتعليق لقلوبهم بحبل الرجاء بالله الغني المغني ، وتهديد للاغنياء ، وانذار لهم أن يغتروا بحلم الله ، وامهاله اياهم ، وعدم معاجلتهم بالعقاب على كفرهم بنعمته عليهم بالمال ، فانه يوشك أن يسلبها منهم في يوم من الايام .

ويقول في سورة الانعام :

« وَرَبُّكَ الغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ » (١) .

ويعلق تفسير المنار على الآية بقوله : « هو الغنيّ الكامل الغِنى ، وذو الرحمة الكاملة الشاملة ، التي وسعت كل شيء . أما الاول فبيانه أن الغنى هو عدم الحاجة ، وانما يكون على اطلاقه وكمال معناه ــ بل أصل معناه ــ لواجب الوجود ، والصفات الكمالية بذاته ، وهو الرب الخالق ، اذ كل ما عداه ، فهو محتاج اليه في وجوده وبقائه ، ومحتاج بالتبع لذلك الى الاسباب التي جعلها تعالى قوام وجوده .

وانما يقال في الخَلق : هذا غني ، اذا كان واحدا لأهم هذه الاسباب ، فغنى الناس مثلا اضافي عرفي ، لا حقيقي مطلق ، فان ذا المال الكثير الذي يسمى غنيا كثير الحاجات ، فقير الى كثير من الناس ، كالزوج

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٣٣ .

والخادم والعامل والطبيب والحاكم ، دع حاجته الى خالقه وخالق كل شيء، التي قال تعالى فيها : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغني الحميد » . وقد كان الله تعالى ولا شيء معه ، غنيا عن كل شيء ، وهو الآن على ما عليه كان ، غيرمحتاج الى عمل العاملين ، لأنه لا ينفعه ، بل ينفعهم ، ولا الى دفع عمل العاصين ، لأنه لا يضره ، بل يضرهم ، فالتكليف والجزاء عليه رحمة منه سبحانه بهم ، يكمل نقص المستعد للكمال .

ويقول تعالى في سورة البقرة :

« وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ »[1] .

أي غني عن عطاء الناس اطلاقا :

« ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ »[2] .

فاذا بذل الناس شيئا فانما يبذلونه لأنفسهم ، فليبذلوه طيبا ، وليبذلوه طيبة به نفوسهم كذلك ، فالله حميد يتقبل الطيبات ، ويحمدها ويثيب عليها بالحسنى .

وقد تكرر وصف الله بأنه « غني حميد » نحو عشر مرات ، ولعل السر في ذلك ــ والله أعلم بمراده ــ هو تأكيد الاشارة الى أن الله مطلق الغنى ، ومع غناه المطلق يحمد العمل الطيب من خلقه ، ويجازي عليه الجزاء الجميل .

والغنى بالله يجعل الانسان موقنا بأن ما عند الله خير وأبقى . وأنه

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٧ و٥٨ .

القادر على أن يكفي الانسان ويرزقه بغير حساب عندما يشاء ، والله يقول لرسوله في سورة الضحى :

« وَوَجَدَكَ عائِلاً فأَغْنَى » [1] .

والعائل هو المحتاج أو الفقير ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيرا قليل المال ، فأغناه ربه بما وهبه له في التجارة ، وبما يسر له من مال خديجة ، وكذلك صار رسول الله بفضل الله أغنى من كل عباد الله ، لأنه استغنى بمولاه ، فهيأ له في الحياة كل العز والجاه .

وذهب أهل التفسير مذاهب تبهر في كيفية اغناء الله لرسوله هنا ، فمن قائل : أغناه من المال بعد فقره ، ومن قائل : أرضاه بما أعطاه ، وأغناه به عن سواه ، فالغنى هنا غنى النفس ، لا غنى المال ، وغنى النفس هو الغني الحقيقي . ومن قائل : أغناه من هذا ومن ذاك : أغناه من المال ، وأغنى قلبه به .

ويقول الذكر الحكيم في سورة التوبة :

« وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [2] .

أي ان خفتم فقرا فلا تنسوا أن الله عنده الغنى . وسبب نزول الآية كما ذكره ابن عباس هو أن المشركين كانوا يجيئون الى البيت الحرام ، ويجيئون معهم بألوان الطعام يتجرون فيه ، فنهى الله تعالى عن مجيء المشركين الى بيت الله الحرام ، فقال المسلمون : فمن أين لنا بالطعام ؟. فنزل قوله تعالى :

---

(١) سورة الضحى ، الآية ٨ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هَذا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

فأنزل الله عليهم المطر ، وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم .

واذا كان الغنى بالله هو باب الخير ، ومصدر البر ، ومفتاح العز ، فان الاستغناء بغير الله لا يفيد ولا ينفع ، لا اليوم ولا غدا ، ولذلك يقول القرآن في سورة آل عمران :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ولا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النّارِ » (١) .

أي لا تغني عنهم أي نوع من الغناء ، وقد ذكر النص الاموال والاولاد ، لأن المغرور انما يصده — كما يعبر بعض المفسرين — عن اتباع الحق أو النظر في دليله ، الاستغناء بما هو فيه من النعم ، وأعظمها الاموال والاولاد .

فالذى يرى نفسه مستغنيا بمثل ذلك ، قلما يوجه نظره الى طلب الحق ، أو يصغي الى الداعي اليه ، ومن لم يوجه نظره الى الحق لا يبصره ، ومن لم يبصره تخبط في دياجير الضلال عمره ، حتى يتردى فيهلك الهلاك الابدي ، ولا ينفعه في الآخرة ماله فيفتدي به ، أو ينتفع بما كان أنفقه منه.

ويقول الله تعالى في سورة المسد عن أبي لهب :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠ .

« ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وَمَا كَسَبَ »[1] .

أي لم يفده ماله الذي جمعه ، ولم يحقق له غنى ولا عزا ، ولا أبلغه العلو الذي طمح اليه ، بل مضى الى شر منقلب .

وقد أكد القرآن المجيد هذا المعنى ، وهو انه لا يستطيع أحد تحقيق الغنى سوى الله ، ففي سورة الحجر :

« فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ »[2] .

وفي سورة هود :

« فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ »[3] .

وفي سورة الجاثية :

« إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً »[4] .

... الخ .

ومن القرآن الحكيم نفهم أن محاولة الاستغناء من غير طريق الغنى بالله سبحانه تؤدي الى رذيلة الطغيان ، فنجد في سورة العلق : « كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، ان الى ربك الرجعى » .

---

(١) سورة الحسد ، الآية ٢ .
(٢) سورة الحجر ، الآية ٨٤ .
(٣) سورة هود ، الآية ١٠١ .
(٤) سورة الجاثية ، الآية ١٩ .

وهاهوذا الاستاذ الامام محمد عبده يعلق على هذا النص الكريم بقولـه :

« ما أسخف عقل الانسان ، فانه مع ظهور أمره ، وشدة فقـره في نفسه ، وظهور أن الله مالك كل شيء عنده ، يطغى ويخرج عن الحـد الذي يجب عليه أن يقف عنده ، فيستكبر عن الخشوع لربه ، ويتطاول بالأذى على خلقه ، وذلك (أن رآه استغنى) أي متى أحس من نفسه قدرة وثروة يعد نفسه بهما فوق من دونه من الناس ، فلا يرى انه معهم أعضاء جماعة واحدة ، يحتاج كل الى الآخر ، في استدامـة الأمـن واستكمال السعادة » .

ثم يقول : « ولما كان المغرور يظن أنه في سوء عمله انما يصنع ما هو من حقه ، ضاعف له التأكيد ، فقال (ليطغى) : أي أنه باستغنائه يخرج عن حده قطعا ، ثم بيّن أنه واهم في طغيانه ، كاذب في زعمه أنـه ملـك ناصية القوة والقدرة ، لأن مـا في يده عارية ، وليست نفسه بباقية ، ولا لها من الله واقية ، فقال : « (ان الى ربك الرجعى) . أي ان المرجع الى الله وحده دون غيره ، فهو مالكك ومالك ما تملكه ، وهو الذي ينتزع روحك فتخرج من هذه الحياة الدنيا ، الى حياة ينكشف عنك فيها غطاء الغرور ».

ويروي ابن القيم أنـه جـاء في الاثر الالهي : « ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فان وجدتني وجدت كل شيء ، وان فُتُّكَ فاتك كل شيء ، وأنا أحب اليك من كل شيء » .



وننتقل الى روضة السنة المطهرة ، فنجد فيها عناية واضحة بالتوجيه الى الاستغناء بالله دون من عداه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي : « كلكم فقـير الا مـن أغنيت

فسلوني » . وجــاء في الحديث الشريف : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » . وكان من عادة الرسول أن يقول في استفتاحه هذه الكلمات الدالة على غناه بربه ، وكفايته بخالقه ، فهو يقول فيها : « اللهم لك أسلمت، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليــك أنت ، وبك خاصمت . واليــك حاكمت » .

وثمة حديث نبوي يحتل مركز الصدارة حين يدور الحديث عــن الغنى بالله ، وهو قول رسول الله فيما يرويه البخاري : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » . فهو نص في أن المال ليس هو مقياس الغنى ، وان الغنى ليس الاستكثار من متاع الدنيا وزينة الحياة . وكيف يصح هذا في العقول والقرآن الحكيم يستنكره حــين يقول في سورة المؤمنون :

«أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وبنين نُسارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرونَ » .

وهاهوذا ابن حجر في « فتح الباري » يربط بين الحديث الشريف والآية الكريمة فيقول : « خيرية المال ليست لذاته ، بل بحسب ما يتعلق به ، وان كان يسمى خيرا في الجملة ، وكذلك صاحب المال الكثير ليس غنيا لذاته ، بل بحسب تصرفه فيه ، فان كان في نفسه غنيا لم يتوقف في صرفه في الواجبات والمستحبات من وجوه البر والقربات ، وان كان في نفسه فقيرا أمسكه وامتنع من بذله فيما أمر به ، خشية من نفاده ، فهو في الحقيقة فقير صورة ومعنى ، وان كان المال تحت يده ، لكونه لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الأخرى ، بل ربما كان وبالا عليه » .

ولقد جاءت رواية عن أبي ذر يقول : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر ، أترى كثرة المال هو الغنى ؟. قلت : نعم . قــال : وترى قلة المال هو الفقر ؟. قلت : نعم يا رسول الله . قال : انما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » .

ويقول ابن بطال : معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال ، لأن كثيرا ممن وسع الله عليه في المـال لا يقنع بما أوتي ، فهـو يجتهـد في الازدياد ، ولا يبالي من أين يأتيه ، فكأنه فقير لشدة حرصه .

وانما حقيقة الغنى غنى النفس ، وهو من استغنى بما أوتي ، وقنـع به ورضي ، ولم يحرص على الازدياد ، ولا ألح في الطلب ، فكأنه غني .

ويقول القرطبي : معنى الحـديث : ان الغنى النـافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس .

وبيانه أنه اذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت ، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصـه ، فانه يورطـه في رذائل الامـور وخسائس الافعال ، لدناءة همته وبخله ، ويكثر من يذمه من الناس ، ويصغر قدره عندهم ، فيكون أحقر من كل حقير ، وأذل من كل ذليل .

والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما رزقه الله ، لا يحرص عـلى الازدياد لغـير حاجـة ، ولا يلح في الطلب ، ولا يلحف في السؤال ، بل يرضى بما قسم الله له ، فكأنه واجد أبدا . والمتصف بفقـر النفس على الضد منه ، لكونه لا يقنع بما أعطي ، بل هـو أبدا في طلـب الازدياد من أي وجه أمكنه ، ثم اذا فاته المطلوب حزن وأسف ، فكأنه فقير من المال ، لأنه لم يستغن بما أعطي ، فكأنه ليس بغني .

ثم ان غنى النفس انما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليـم لأمره ، علما بأن الذي عند الله خـير وأبقى ، فهـو معرض عـن الحرص والطلب ، وما أحسن قول القائل :

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة
فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقـرا

ويتجه الطيبي متجها آخر في فهم الغنى هنا ، فيرى أنه يمكن أن يراد بغنى النفس حصولات الكمالات العلمية والعملية ، والى ذلك يشير القائل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر ، فالذي فعل الفقر

أي ينبغي أن ينفق أوقاته في الغنى الحقيقي ، وهو تحصيل الكمالات ، لا في جمع المال ، فانه لا يزداد بذلك الا فقرا .

ولكن الاظهر أن غنى النفس يحصل بغنى القلب ، بأن يفتقر الى ربه في جميع أموره ، كما يرجح ابن حجر ، فيتحقق أنه المعطي المانع ، فيرضى بقضائه ، ويشكره على نعمائه ، ويفزع اليه في كشف ضرائه ، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تبارك وتعالى .

* * *

ثم نطوف بساحة الصوفية الذين يشغلون أنفسهم بالارواح والقلوب. فنجد لهم سهمهم في تصور الغنى بالله نجد أبا تراب النخشبي يقول : « حقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك ، وحقيقة الفقر أن تفتقر الى من هو مثلك ».

ويقبل يحيى بن معاذ ليقول شعرا في تحديد صفات الغنى بالله ، الغنى عمن سواه ، فيقول ـ فيما يقول عنه ـ هذه الابيات :

ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه في كل حكم نازل

ويحدثنا بعضهم عن خصال المقبلين على الله فيقول : « ثلاث خصال

من صفة الاولياء : الثقة بالله في كل شيء ، والغنى بالله عن كل شيء ، والرجوع اليه في كل شيء » .

وهذا شاعر يسير نحو الغنى بالله ، فيناجي ربه بقوله :

أنت الغني الـذي مُدت خزائنه لطالبي الرزق ، لم تنقص ولم تزد
وكل من هو محتـاج يمد بمفـ ـتاح الدعاء لباب الواحد الصمد
نعطي ـبغير حسابـ كل مغترف بالجـود ، متكل بالحق ، معتمـد
وحين عن غـيره تغنيـه تجعلـه لجود ذاتك محتاجـا الى الابـد

يا رحمن الدنيا والآخرة ، اكفنا بالغنى بك ، واصرفنا عن الاحتياج لغـيرك .

الثقة بالله

كلمة « الثقة » مشتقة من مادة وثق به ، أي ائتمنه وسكن اليه ، والموثق هو الائتمان ، ويطلق على العهد المؤكد كالميثاق ، لأنه يقع به الائتمان . والوثيق : الصلب الشديد . ويقال : عهد وثيق محكم ، وعروة وثيقة أي محكمة لا تنقطع ولا تنفصم ، ويقال للمتمسك بالدين : انه متمسك بالعروة الوثقى ، أي متمسك بحبل قوي متين يعصمه من الزلل . والثقة فيها معاني الركون والاطمئنان والأمان .

والثقة بالله تبارك وتعالى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدى النبي الامين عليه الصلاة والتسليم ، ويقول الامام الهروي في بيان الشأن العظيم لهذه الفضيلة : « الثقة سواد عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم » .

ويأتي الامام ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » ويعلق على عبارة الهروي الدقيقة العميقة فيقول :

« ومراده أن الثقة خلاصة التوكل ولبه ، كما أن سواد العين أشرف ما في العين . وأشار بأنه نقطة دائرة التفويض الى أن مدار التوكل عليه ،

وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة ، فان النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط ، ونسبة جهات المحيط اليها نسبة واحدة ، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها ، كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

وكذلك قوله : سويداء قلب التسليم ، فان القلب أشرف ما فيه سويداؤه ، وهي المهجة التي تكون بها الحياة ،وهي في وسطه ، فلو كان التفويض قلبا لكانت الثقة سويداءه ، ولو كان عينا لكانت سوادها ، ولو كان دائرة لكانت نقطتها » .

ولقد تكررت كلمة «الميثاق» في القرآن ، وهي تفيد معنى العهد المؤكد ، الذي يفي به الانسان ويخلص له ، لأنه يعقده مع مستحق الثقة كلها ، وهو الله جل جلاله الذي تؤمن به النفس وتثق فيه وتطمئن اليه ، وها هوذا كتاب الله المجيد يقول مثلا :

« وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » [1] .

ونحن نفهم من « المواثقة » هنا أن العباد يثقون بربهم الى درجة اليقين ، ويكون العبد وفيا لربه قدر طاقته ، ويحفظ ميثاقه مع ربه قدر ما يستطيع ، ومقابل هذا ان الله لا يخلف وعده ، ولا يخون عهده : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟. فكأن الله تبارك وتعالى قد أثاب ثقة العبد بمثلها، بل بأكرم منها ، ولله المثل الاعلى .

وآيات القرآن تشير الى أن الله عز شأنه قد أخذ الميثاق ــ وعماده

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٧ .

الثقة ــ من النبيين فقال في سورة آل عمران :

« وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وَحِكْمَة ، ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ عَلى ذَلِكُمْ إِصْرِي (عهدي) قَالُوا أَقْرَرْنَا قالَ فاشْهَدُوا وَأَنا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » [١] .

وقال في سورة الاحزاب :

« وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ وأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً » [٢] .

وأخذ الله الميثاق من بني اسرائيل ، فيقول في سورة المائدة :

« لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ » [٣] .

وأخذ الميثاق من أهل الكتاب ، فقال في سورة آل عمران :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٧ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٧٠ .

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ » [1] .

وأخذ الميثاق على النصارى ، فقال في سورة المائدة :

« وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصَارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ » [2] .

كأن الاساس في الصلة بين الناس وخالقهم هو « الثقة » القائمة على « الميثاق » ، فالله هو خير من يوثق به ، ولا فلاح للناس الا اذا وفوا بعهدهم وميثاقهم ، فكأن الفيض الالهي الذي تحققه الثقة بالله ، له ثمن ومقابل ، هو الوفاء بالميثاق .

ولذلك أثنى القرآن الحكيم على أهل الثقة بالله ، الاوفياء بميثاق الله ، الذين وصفهم في سورة الرعد بقوله :

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ المِيثاقَ » [3] .

وأخبر عنهم بقوله :

« أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبى الدَّارِ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٧ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١٤ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٢٠ .

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وأَزواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » [1] .

وأكاد أفهم أن وصف هؤلاء بالصبر هنا فيه اشارة الى أن فضيلة « الثقة بالله » تستلزم الصبر الجميل على كل ما يأتي به الله ، والرضى بالله قسما وحظا في سائر الازمان والاحوال وهو خير الناصرين للواثقين الصابرين .

ويقول كتاب الله في سورة البقرة :

« فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَها واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [2] .

أي ان من يكفر بما خالف أمر الله ، ويصدق بالله ويثق فيه ، وبما جاءت به رسله ، فقد اعتصم بالعصمة الوثيقة ، وعقد لنفسه مع ربه عقدا وثيقا غليظا لا ينقطع ولا يبلى ، ولا تعرض له شبهة ، لأنه مؤمن بالله ، معتصم بحماه ، واثق بجنابه ، مستمسك بأسبابه ، وهو القوي القدير .

وأكد القرآن هذا المعنى في سورة لقمان حين قال :

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ الى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإِلى اللهِ عاقِبَةُ الأُمورِ » [3] .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٢٢ ــ ٢٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .
(٣) سورة لقمان ، الآية ٢٢ .

ومن يثق بالله جل علاه يوقن من أعماق الاعماق أن الله كافيه وكافله . لأنه نعم الحسيب ، فهو القائم بالتدبير ، وهو المتصرف في المقادير . ومن أسماء الله « الحسيب » ، والحسيب هو الكافي . وفي القرآن : « وكفى بالله حسيبا » أي كافيا وكفيلا . وقد أكد التنزيل المجيد هذا المعنى أقوى تأكيد ، فقال في سورة آل عمران عن المجاهدين في سبيل الله :

« الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »[1] .

وقال في سورة التوبة :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتَاهُمُ اللهُ ورَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنا اللهُ سَيُؤتِينا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إلى اللهِ راغِبُونَ »[2] .

وهذا توجيه الى الثقة بالله ، وحث على اللجوء الى الله .

ويقول في سورة الأنفال :

« وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فانَّ حَسْبَكَ اللهُ »[3] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٣ - ١٧٤ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٥٩ .
(٣) سورة الانفال ، الآية ٦٢ .

ويقول في آخر سورة التوبة :

« فإِنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم » (١) .

ويقول في سورة الزمر :

« قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ » (٢) .

ويقول في سورة الطلاق :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (٣) .

ويسوق القرآن الحكيم الينا نموذجا رائعا من نماذج الثقة بالله تعالى ، وهو ما كان من أمر أم موسى عليه السلام ، حيث يقول :

« وَأَوْحَيْنا إِلى أَمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ولا تخافِي وَلا تَحْزَني إِنَّا رادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ » (٤) .

ونعم ما علق به ابن القيم على هذا الموقف ، حيث قال : « فان فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى ، اذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٩ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٨ .
(٣) سارة الطلاق ، الآية ٣ .
(٤) سورة القصص ، الآية ٧ .

وفلذة كبدها في تيار المـــاء ، تتلاعب به أمواجــه ، وجريانه حيث ينتهي أو يقف » .



ويحمل القرآن حملة صارمة حازمة عــلى الذين يخونون الميثــاق ، ويفقدون الثقة بالله ، فيصبحون فريسة العقاب والضلال ، فيقول القرآن في سورة البقرة :

« الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ » [1] .

ويقول في سورة الرعد :

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ أُولئك لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » [2] .

ويقول في سورة المائدة :

«فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً»[3].

وقد قيل في تفسير « عهد الله » المذكور في الآيتين السابقتين عدة

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ٢٥ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ١٣ .

أقوال أوردها تفسير الطبرسي بقوله : « وقيل في عهد الله وجوه : أحدها انه ما ركّب في عقولهم من أدلة التوحيد والعدل وتصديق الرسل ، وما احتج به لرسله ، من المعجزات الشاهدة لهم على صدقهم ، ونقضهم لذلك : تركهم الاقرار بما قد بُينت لهم صحته بالادلة .

وثانيها : أنه وصية الله الى خلقه على لسان رسوله ، بما أمرهم به من طاعته ، ونهاهم عنه من معصيته ، فنقضهم لذلك تركهم العمل به .

وثالثها : أن المراد به كفار أهل الكتاب ، وعهد الله الذي نقضوه من بعد ميثاقه هو ما أخذه عليهم في التوراة ، من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، والتصديق بما جاء به من عند ربه ، ونقضهم لذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وكتمانهم ذلك عن الناس ، بعد أن أخذ الله ميثاقهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وانهم ان جاءهم نذير آمنوا به ، فلما جاءهم النذير ازدادوا نفورا ، ونبذوا العهد وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، واختار هذا الوجه الطبري .

ورابعها : أنه العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ، كما وردت به القصة ، وهذا الوجه ضعيف ، لأنه لا يجوز أن يحتج على عباده بعهد لا يذكرونه ولا يعرفونه ، ولا يكون عليه دليل » .



والثقة بالله تعالى ثلاث درجات عند الصوفية :

الدرجة الاولى : درجة اليأس من تغيير ما قدر الله سبحانه ، فهو اذا قضى أمرا فلا مرد له ، ولا معقب لحكمه . وهذا اليأس يجعل صاحبه خاضعا لأمر الله ، لا تتعلق ارادته بسواه ، فحسبه الثقة بمولاه .

الدرجة الثانية : درجة الامن ، حيث لا يأسى على فائت ، بل يطمئن الى أن نصيبه من ربه سيصله حتما ، وهنا تسوده روح الرضى ، فيشعر

بالراحة واللذة والنعيم ، وقد روى عبدالله بن مسعود رضي الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله ــ بعدله وقسطه ــ جعل الرّوح والفرح في اليقين والرضى ، وجعـل الهم والحـزن في الشـك والسخط » :

الدرجة الثالثة : شهود القلب بأولية الحق ، وتفرد الله جل جلالـه بالازلية ، فلا يتعلق القلب بالوسائل التي يحسب أنها توصل الى المطالب .

وكثير من العلماء يجعل التوكل على الله ، والثقة بالله ، شيئا واحدا.

ولكن عند انعام النظر نفهم أن نسبة الثقة الى التوكل كنسبة الروح الى البدن ، فالثقة روح التوكل ، والتوكل كالبدن الحامل لها ، وذلـك كنسبة الاحسان الى الايمان .

وعندما علق ابن القيم على كلام الهروي عن « الثقة » قـال هـذه العبـارة :

« وقد تقدم أن كثيرا من الناس يفسـر التوكل بالثقـة ، ويجعلـه حقيقتها ، ومنهم من يفسره بالتفويض ، ومنهم من يفسره بالتسليم . فعلمت أن مقام التوكل يجمع ذلك كله .

فكأن الثقة عند الشيخ هي روح ، والتوكل كالبدن الحامل لهـا ، ونسبتها الى التوكل كنسبة الاحسان الى الايمان ، والله أعلم » . وقـد تحدثت عن فضيلة « التوكل » في الجزء الثـاني من كتابي : « أخـلاق القرآن » كذا ، وينبغي أن نرجع اليه لنستكمل صورة الموضوع .

ولقد عني الصوفية بفضيلة « الثقة بالله » وشققوا الحديث عنها على طريقتهم ، فهذا هو شقيق البلخي يسأله بعض الناس : بأي شيء يُعرف أن العبد واثق بربه ؟

فقال : يعرف بأنه اذا فاته شيء من الدنيا يحسبه غنيمة ، واذا أبطأ عليه شيء من الدنيا يكون أحب اليه من أن يأتيه .

ومن كلام حاتم الاصم الصوفي : من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضا الله : أولها الثقة بالله ، ثم التوكل ، ثم الاخلاص ، ثم المعرفة ، والامور كلها تتم بالمعرفة .

ويقول يحيى بن معاذ الرازي : ثلاث خصال من صفات الاولياء : الثقة بالله في كل شيء ، والغنى به عن كل شيء ، والرجوع اليه في كل شيء .

رزقني الله واياك فضيلة الثقة به ، ونعمة الالتجاء اليه .

التواصي بالخير

الوصية هي العهد بأمر من الامور ، كي يفعل ، مما فيه صلاح عند الموصى . ووصاه بالشيء : رغب اليه في أن يفعله ، وأوصاه بكذا : عهد اليه به ، وتواصى القوم : أوصى بعضهم بعضا ، والوصية تقترن في العادة بوعظ لكي يحبب قائل الوصية من يوصيه في عمل الخير . والتوصية في الميراث هي ذكر ما يراد فعله في المال والقرابة بعد الموت .

وفضيلة التواصي بالخير تفيد أن صاحبها قد تعود أن يتقدم بالنصيحة أو وصية الخير الى من يحتاج اليها ، أو من يطلبها ، وهو مع هذا أو قبل هذا قد تعود أن يطلب من غيره أن يوصيه وينصحه ويوجهه ، وبذلك يكون الانسان ناصحا ومنصوحا ، موصيا وموصى اليه ، وبذلك تتحقق فضيلة التواصي بالخير ، لأن التواصي معناه أن يوصي بعض القوم بعضا ، أي هم يتبادلون الوصية ، فكل منهم معط وآخذ .

وأساس فضيلة التواصي بالخير أن يكون المجتمع قائما على التذكير بالخير ، والندب اليه ، فتكون الوصية بما هو خير شائعة فيه ذائعة ، ومن وراء شيوعها يكون هناك تبادل للوصية ، فيتحقق التواصي بالخير .

وهناك من يقبل الوصية ويستجيب لها ، وهذه منزلة من الخير محمودة ، وهناك من يحرص على بذل الوصية لغيره ، وهذه منزلة أخرى من الخير محمودة ، والاكمل الافضل هو أن يتقبل الانسان النصيحة المخلصة

ويعمل بها ، وأن يبذل الانسان النصيحة المخلصة لغيره . فذلك جمع بين الحسنيين .

ويكفي الوصية بالخير شرفا وقدرا أن الله تبارك وتعالى قد أوصى عباده ، وتحدث عن الوصايا الالهية أكثر من مرة في تنزيله المجيد . فقال في سورة النساء :

« وَلِلّهِ ما في السَّموات وما في الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوْتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وإنْ تَكْفُرُوا فإنَّ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً »[1] .

أي أوصيناكم وأوصيناهم من قبلكم بتقوى الله واقامة دينه . والتزام شريعته ، حتى تسعدوا في الدين والدنيا ، والاولى والآخرة ؛ وان أبيتم الوصية ، وأعرضتم عن النصح ، وكفرتم بالله ، وأنكرتم نعماه . فان ذلك لا يضره شيئا ، بل يضركم أنتم ، لأن الله غني عنكم . وأنتم الفقراء اليه ، وهو محمود بكل لسان :

« وَإِنْ مِنْ شيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[2] .

وهو غير محتاج الى شكركم :

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٣١ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٤٤ .

« يا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيد » [1] .

وقد تكرر ذكر الوصية من الله جل جلاله في القرآن الكريم مرات ومـرات :

في سورة الانعام :

« ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » [2] .

وفيها قوله :

« ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » [3] .

وفيهـا :

« ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [4] .

وكأن الاستجابة للوصية الالهية هي مفتاح العقل والبصيرة ، وباب التذكر المرشد المسعد ، وسبب التقوى المنجية المعلية .

وفي سورة العنكبوت :

« وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً » [5] .

---

(1) سورة فاطر ، الآية ١٥ .
(2) سورة الانعام ، الآية ١٥١ .
(3) سورة الانعام ، الآية ١٥٢ .
(4) سورة الانعام ، الآية ١٥٣
(5) سورة العنكبوت ، الآية ٨ .

وفي سورة مريم على لسان عيسى :

« وَأَوْصَانِي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيّاً »[1] .

والتوصية بالخير من سنن الانبياء وعادة المرسلين ، ولذلك يقــول القرآن الكريم في سورة البقرة :

« وَوَصَّى بِها إبراهيمُ بَنيهِ وَيعقوبُ يا بنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

أي وصى ابراهيم بملة الحق وكلمة الاخلاص : « لا اله الا الله » أو كلمة : « أسلمت لرب العالمين » ... ووصى بها ابراهيم بنيه ، وكذلك فعل يعقوب في التوصية ، فكل منهما قد قال لأبنائه : يا أبنائي ، ان الله اختار لكم دين الاسلام فلا تتركوه ، فيصـــادفكم الموت وأنتم تاركــوه فتخسروا . أو الزموا الاسلام حتى آخر لحظـــة في حياتكم حتى تموتوا وأنتم ثابتون عليه .



ويتحدث القرآن الكريم في سورة البلد عن صفات الناجين من النار والعذاب ، الفائزين بالنعم والثواب ، فيقول فيما يقول :

« ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وتَواصَوْا بالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَةِ أولئِكَ أَصْحابُ المَيْمَنَةِ »[2] .

---

(١) سورة مريم ، الآية ٣١ .
(٢) سورة البلد ، الآية ١٧ ، ١٨ .

أي عملوا الاعمال الصالحة ، مؤمنين بالله ، مبتغين وجهه ، وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله ، والابتعاد عن معاصيه ، والاحتمال لما أصابهم ، وأوصى بعضهم بعضا كذلك بالرحمة على الخلق ، فرحموا اليتيم والمسكين والضعيف ، أولئك هم أهل اليمين، أهل اليمن والتوفيق، فهم يأخذون صحفهم بأيمانهم ويدخلون جنات النعيم .

ويعلق تفسير الرازي على الآية الكريمة بقوله : « فالمعنى انه كان يوصي بعضهم بعضا بالصبر على الايمان ، والثبات عليه ، أو بالصبر عن المعاصي ، وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن . ثم ضم اليه التواصي بالمرحمة ، وهي أن يحث بعضهم بعضا على أن يرحم المظلوم أو الفقير ، أو يرحم المقدم على منكر فيمنعه منه ، لأن كل ذلك داخل في الرحمة .

وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق ، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه .

واعلم أن قوله « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » يعني يكون مقتحم العقبة من هذه الزمرة والطائفة ، وهذه الطائفة هم أكابر الصحابة ، كالخلفاء الاربعة وغيرهم ، فانهم كانوا مبالغين في الصبر على شدائد الدين والرحمة على الخلق .

وبالجملة فقوله : « وتواصوا بالصبر » اشارة الى التعظيم لأمر الله ، وقوله : « وتواصوا بالمرحمة » اشارة الى الشفقة على خلق الله ، ومدار أمر الطاعات ليس الا على هذين الاصلين ، وهو الذي قاله بعض المحققين : ان الاصل في التصوف أمران : صدق الحق ، وخُلق مع الخَلق .

ثم انه سبحانه لما وصف هؤلاء المؤمنين بيَّن أنهم من هم في القيامة، فقال : « أولئك أصحاب الميمنة » وانما ذكر ذلك لأنه تعالى بيَّن حالهم

في سورة الواقعة ، وأنهم :

« فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » [1] .

ويتعرض تفسير « في ظلال القرآن » للآية كذلك ، فيشير الى ان الصبر دعامة من دعائم تحقق الايمان ، وأن التواصي به عنوان على تماسك الامة المؤمنة ، وتكافلها في اقامة مجتمع الايمان والصبر ، لأن أبناء هذه الامة كالجسد الواحد ، أو كالبنيان المرصوص ، يتساندون في النهوض بالاعباء ، والالتزام بالتبعات ، والاداء للواجبات ، ويتعاونون على البر والتقوى ، ويتنافسون في الخير والهدى ، فاذا كان كل منهم يتحلى بفضيلة الصبر في نفسه وذاته ، فهو يسهم مع هذا في توفير روح الصبر عند أخيه في الله تبارك وتعالى ، وهو يشارك في اشاعة روح التعاضد والتساند بين أبناء الامة كلهم ، وهو يتعاون مع اخوته في الله في نشر نسمات الرفق واللين والرحمة بين ربوع مجتمعه ، حتى يكون هذا الفرد المؤمن العامل المعاون الراحم من أهل اليمن والامان ، والنجاة والاطمئنان ، فتأتي في التفسير هذه العبارة :

« الصبر هو العنصر الضروري للايمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته : درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الايمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الايمان في الارض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضا فلا تنهزم .

وهذا أمر غير الصبر الفردي ، وان يكن قائما على الصبر الفردي ،

---

(1) سورة الواقعة ، الآية ٢٩ و٣٠ .

وهو ايحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة ، فهو أمر زائد على المرحمة ، انه اشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع . فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه، وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين ، فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحا كاملا .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة ــ كما وصفها القرآن وحددها ــ « أولئك أصحاب الميمنة » . وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى ، أو انهم أصحاب اليمن والحظ والسعادة . وكلا المعنيين متصل في المفهوم الايماني » .

ويقول القرآن المجيد في سورة العصر :

« وَالعَصْرِ ، إن الإِنْسانَ لَفي خُسْرٍ ، إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَوَاصَوْا بالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ » .

أي تحابوا فتبادلوا فيما بينهم الوصية بالحق ــ وهو ضد الباطل ــ ولا يوصي بالحق الا من كان عليما بالحق ، عاملا به ، ثابتا عليه ، فالتواصي بالحق يستلزم أن نعرف الحق ، وأن نؤمن بجمال هذا الحق ووجوبه ،

وأن نخضع لهذا الحق فنتبعه وتتمسك به وندافع عنه ، وأن نخلص أخيرا في هداية غيرنا الى طريقه ، لأن الايمان لا يكمل الا اذا أحب المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه .

وتواصوا بالصبر ، والصبر ملكة تجعل صاحبها يحتمل ما يشق احتماله ، وأن يحتمله دون شكوى ، والصبر أنواع ، فهناك صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر في طلب العلم ، وصبر في الاعداد ، وصبر في الجهاد ، وصبر على تبعات الواجب ، وصبر في تعليم الغير ، وصبر عند الغضب ، وصبر ضد شهوات النفس ، وهكذا .

ويلزمنا حين نوصي بالصبر أن نصحح معنى الصبر ، وأن نؤمن بأنه طريق الفوز ، وأن يخلص كل منا في نصيحة أخيه بالتزام الصبر . فهو لا يكتفي بصلاح نفسه ، بل ينقل الخير الى أخيه في الاسلام .

ولقد قررت سورة العصر أن جنس الانسان في خسار ووبال ، ثم استثنت المتصفين بالايمان والعمل ، ثم وصفتهم بعد ذلك ــ كما يقول الرازي ــ بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم ، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضا سببا لطاعات الغير ، كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين ، وكما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه يلزمه في غيره أمور منها الدعوة الى الدين ، والنصيحة ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن يحب لاخيه ما يحب لنفسه .

ويقول الامام محمد عبده : « شرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصي غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة التي هي أم الفضائل بأسرها ، ولا يمكنك حمله على ذلك حتى تكون بنفسك متحليا بها ، والا دخلت فيمن يقول ولا يفعل كما يقول ، فلم تكن ممن يعمل الصالحات » .

ويتعرض تفسير « في ظلال القرآن » للتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فيذكر أنهما عنوان كرم للامة الكريمة المؤمنـة ، ذات الشخصية المتميزة المتماسكة ، والتي تستطيع بايمانها وعملها الصالح أن تكون طليعة للانسانية الفاضلة وقائدة لها نحو الخير والصلاح : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

واذا كان الاستمساك بالحق عسيرا ، وقد تنوء به همة الفرد من الافراد على النطاق العـام ، فان تلاقي الهمم وتجمـع العزائم ، وتبـادل التواصي بالواجب ، يعين ويشجع ، وما أقل جهد الفرد في تحقيق الخـير العام ، وما أكثره حين يتضام مع جهود سواه هنا وهناك .

وحين تتجه الامة الى اقامة مجتمع الحق والخير ، لا بد لها من الصبر ، ولا بد لها من احتمال المتاعب والمصاعب ، وحينئذ تتكاثر العزائم الصابرة ، وتتضاعف الايدي الثابتة ، وتتوالى الاقدام الراسخة ، فاذا أضيف الى ذلك أن الهدف واحد ، وأن الصف واحد ، وأن الغاية واحدة ، فقد اجتمع للامة الكثير من حوافز الخير وعوامل الاصلاح ، ومن وراء تلك تتوالى الخطوات الجماعية المخلصة المتساندة الماضية نحو دعم الحق وتأييد الخير .

يقول التفسير : « أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالهما صورة الامة المسلمة ــ أو الجماعة المسلمة ــ ذات الكيان الخاص ، والرابطة المتميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التي تشعر بكيانها كمـا تشعر بواجبها ، والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الايمان والعمل الصالح ، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الايمان والعمـل الصالح ، فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالامانة الكبرى .

فمن خلال لفظ « التواصي » ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الامة أو الجماعة المتضامة المتضامنة ، الامة الخيرة الواعية القيمة في الأرض ،

على الحق والعدل والخير، وهي أعلى وأنصع صورة للامة المختارة، وهكذا يريد الاسلام أمة الاسلام ، هكذا يريدها أمة خيرة واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر ، في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن .

والتواصي بالحق ضرورة ، فالنهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين . والتواصي تذكير وتشجيع واشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والاخوة في العبء والامانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، اذ تتفاعل معا فتتضاعف . تتضاعف باحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ، ويحبه ولا يخذله ... » .

ويقال قريب من هذا عن الصبر والتواصي به ، لأنه يقوي العزيمة ويلد الاصرار على الثبات حتى الانتصار .



وننتقل من روضة القرآن المجيد الى روضة السنة المطهرة ، فنجد رسول الله عليه الصلاة والسلام يعنى بالنصيحة والوصية ، ففي المسند أن رسول الله أوصى سلمان الخير ، وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه اذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله . ولم لا وهو يتلقى من سفير الرحمن جبريل الوصية بعد الوصية ، ومن أمثلة ذلك ما يدلنا عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي : أوصني . فقال له : لا تغضب ، فكرر مرارا فقال له : لا تغضب .

لا أدعهن حتى أموت : صوم ثلاثة أيام من كل شيء، وصلاة الضحى، ونوم
لا أدعهن حتى أمات : صوم ثلاثة أيام من كل شيء، وصلاة الضحى، ونوم على وتر » .

وفي البخاري كذلك عن ابن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصى بكتاب الله » أي أوصى بحفظه حسا ومعنى ، فيكرم ويصان ، ويتبع ما فيه فيعمل بأوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويداوم تلاوته وتعلمه وتعليمه . وحسبنا أن نجد أمام أبصارنا وبصائرنا قول رائدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « الدين النصيحة » ومعنى هذا ان يكون النصح شعار هذه الامة وديدنها ، يقوم به كل قادر عليه ، ويستجيب له كل محتاج اليه ، وهذا هو المفهوم الكريم لمعنى التواصي بالخير .

ومن وراء سيدنا رسول الله جرت عادة الاخيار من صحابته على أن يبذلوا النصيحة المخلصة والوصية الخيرة ، كلما وجدوا لها موطنا ، وهذا مثلا هو عمر الفاروق يوصي الخليفة من بعده فيقول فيما يقول : «أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين : أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالانصار خيرا ، الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفى عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا ، فانهم ردء الاسلام ، وجباة المال، وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا ، فانهم أصل العرب ، ومادة الاسلام ، أن يؤخذ من حواشي أموالهم ، ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا الا طاقتهم ... » .

ويتحدث أبو حامد الغزالي عن حقوق الاخوة فيقول : « ومن ذلك التعليم والنصيحة ، فليست حاجة أخيك الى العلم بأقل من حاجته الى المال، فان كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك ، وارشاده الى كل ما ينفعه

في الدين والدنيا ، فان علمته وأرشدته ، ولم يعمل بمقتضى العلم ، فعليك النصيحة ، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل ، وفوائد تركه ، وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة ، لينزجر عنه، وتنبهه على عيوبه ، وتقبّح القبيح في عينه ، وتحسّن الحسن .

ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد ، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة ، اذ قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة المؤمن » أي يرى منه ما لا يرى من نفسه ، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ، ولو انفرد لم يستفد ، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة .

وقال الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسعر : أتحب من يخبرك بعيوبك ؟.

فقال : ان نصحني فيما بيني وبينه فنعم ، وان قرعني بين الملأ فلا .

وقد صدق ، فان النصح على الملأ فضيحة ، والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه ، في ظل ستره ، فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله مختوما الى الملائكة الذين يحفون به الى الجنة ، فاذا قارب باب الجنة أعطوه الكتاب مختوما ليقرأه .

وأما أهل المقت فينادون على رؤوس الاشهاد ، وتستنطق جوارحهم بفضائحهم ، فيزدادون بذلك خزيا وافتضاحا ، ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الاكبر ، فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالاسرار والاعلان .

ويأتي حديث الصوفية عن التواصي بالخير ، فنجد ذا النون المصري يقول : « لا تصحب مع الله الا بالموافقة ولا مع الخلق الا بالمناصحة ، ولا مع النفس الا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان الا بالعداوة والمحاربة » .

وقال بعض الشيوخ لرويم الصوفي رحمه الله : أوصني بوصية .

فقال له : يا بني ، ليس غير بذل الروح ، فان قدرت على ذلك ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية .

وقال رجل لابي بكر البارزي : أوصني .

فقال له : احذر الفتك ، وعادتك ، والسكون الى راحتك .

وأوصى ذو النون بعض أصحابه فقال له في نصيحته : يا أخي ، اعلم أنه لا شرف أعلى من الاسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ، ولا عقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس أجل من العافية ، ولا وقاية أمنع من السلامة ، ولا كنز أغنى من القنوع ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة ، والرغبة مفتاح التعب ومطية النصب ، والحرص داع الى التقحم في الذنوب ، والشره جامع لمساوىء الذنوب ، ورب طمع كاذب وأمل خائب ورجاء يؤدي الى الحرمان وإرباح يؤول الى الخسران .

وهذا غيض من فيض ، فما أكثر الوصايا والنصائح والتوجيهات التي تبادلها هؤلاء القوم ، وفاضت بها كتبهم ومصادرهم .

آلا ما أجمل المجتمع حين تعمه روح التواصي بالخير ، ويشيع فيه توجيه النصيحة المخلصة ، وتقبل الوصية النافعة . انه مجتمع الاسلام والايمان ، وموطن الرضى من الرحمن .

الصلاح والاصلاح

الصلاح في اللغة ضد الفساد ، أو ضد السيء ، والصلح أيضا هو ازالة النفار بين الناس . ويقال : اصطلح القوم وتصالحوا . واصلاح الله تعالى الانسان يكون تارة بخلقه اياه صالحا ، وتارة بازالة ما فيه من فساد بعد وجوده ، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح . والعمل الصالح هو ما يصلح للقبول ، أو الذي ليس فيه عيب أو آفة .

والصلاح يراد به هنا أن يكون الانسان صالحا في ذاته ، قد بدأ بنفسه ، فطهرها وهذبها ، واقامها على الصراط ، فأصبحت نفسا طيبة صالحة ، ثم انتقل الانسان بعد ذلك الى اصلاح غيره وتهذيب سواه ، ولذلك قال القائل الحكيم : « الصالحون يبنون أنفسهم ، والمصلحون يبنون الامم » . وقد أشار أبو حامد الغزالي الى أن الجدير بالمسلم هو أن يبدأ بنفسه حتى يتحقق لها الصلاح ، ثم يتدرج في اصلاح من حوله ، مرحلة بعد مرحلة . قال على طريقته في « الاحياء » :

« فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه ، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وتركِ المحرمات ، ثم يعلّم ذلك أهلَ بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم الى جيرانه ، ثم الى أهل محلته ، ثم الى أهل بلده ، ثم الى أهل السواد المكتنف ببلده ، ثم الى أهلِ البوادي من الاكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا الى أقصى

العالم ، فان قام به الادنى سقط عن الابعد ، ولا حرج به على كل قـادر عليه ، قريبا كان أو بعيدا .

ولا يسقط الحرج مـا دام باقيا على وجه الارض جاهل بفرض من فروض دينه ، وهو قادر على أن يسعى اليـه بنفسه ، أو غـيره ، فيعلمـه فرضه . وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه ، يشغله عن تجزئة الاوقات في التفريعات النادرة، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدم على هذا الا فرض عين ، أو فرض كفاية هو أهم منه » .

وبتوافر عنصر الصلاح في النفس ، وعنصر الاصلاح للنفس ، يتحقق للانسان اكتمال فضيلة أخلاقية قرآنية ، ذات شعبتين تكمـل احداهمـا الاخرى ، تلـك الفضيلـة هي مـا عبرتُ عنـه بكلمتي « الصـلاح » و « الاصلاح » .

ولقد تكررت مادة « الصلاح والاصلاح » في القرآن المجيد أكثر من مائة وسبعين مرة ، ونستطيع أن نلحظ من مراجعة هذه المواضـع أن الترتيب الطبيعي أو الغالب فيها أن الايمان مدخـل الى الصـلاح ، وان الاصلاح يكون ثمرة أو نتيجة للصلاح . ومن هنا ينبغي أن نلاحظ هذا الاقتران المتكرر الغالب بين ذكر « الايمان » وذكر « العمل الصالح » . وقد تكرر قول القرآن الكريم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أكثر مـن خمسين مرة .

وليس هناك من ضرورة تلجىء الى ايراد كل هذه المواطن ، وحسبنا هنا نماذج منها ، ففي سورة البقرة يقول الحق تبارك وتعالى :

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ

ثَمَرةٍ رِزْقاً قالُوا هذا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وهُمْ فيها خالِدُونَ » [1] .

وفي سورة المائدة :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » [2] .

وفي سورة يونس :

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ » [3] .

وفي سورة الرعد :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ » [4] .

وفي سورة الكهف :

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٩ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٩ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ٢٩ .

أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » [1] ...

... الخ .

والله تبارك وتعالى يمن على الاخيار من عباده ، فيصلح لهم أعمالهم، وفي هذا تشريف للصلاح والاصلاح، يقول القرآن في سورة الاحزاب :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَــنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عظِيماً » [2] .

والرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ، وهم النماذج العليا من البشر ــ قد أمرهم بأن يعملوا أعمالا صالحة ، وأن يكونوا أئمة في هذا المجال ، بعد ان صنعهم الله على عينه ، فجعلهم أئمة في الصلاح . يقول التنزيل في سورة المؤمنون :

« يا أَيها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالِحاً إني بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » .

يقول بعض أهل التفسير : يأمر الله عباده المرسلين ، عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، بالاكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الاعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الانبياء بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خير ، قولا وعملا ، ودلالة ونصحا ، فجزاهم الله عــن

---

(1) سورة الكهف ، الآية ٣٠ .
(2) سورة الاحزاب ، الآية ٧٠ و٧١ .

العباد خيرا .

وفي سنة الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « بذلك أمرت الرسل : أن لا تأكل الا طيبا ، ولا تعمل الا صالحا » .

وقد ذكر القرآن المجيد طائفة من الانبياء والمرسلين ، وعطر كلا منهم بأنه موصوف بصفة الصلاح ، ففي سورة البقرة يقول عن ابراهيم :

« وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنيا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » (١)

وفي سورة آل عمران يقول عن يحيى :

« فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَاب أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ » (٢) .

وفي السورة نفسها يقول عن عيسى :

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ » (٣) .

وفي سورة الانعام يقول :

« وَزَكَرِيّا وَيَحْيَى وَعِيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحِينَ » (٤)

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٩ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ٤٦ .
(٤) سورة الانعام ، الآية ٨٥ .

وفي سورة الانبياء :

« وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَقَ ويَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صَالِحِينَ »[1] .

وفي السورة ذاتها :

« وإسْماعيلَ وإدْرِيسَ وذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ، وَادْخَلْناهُمْ في رَحْمَتِنا إنَّهُمْ مِنَ الصّالِحِينَ »[2] .

وهذا شعيب ينادي ـ كما في سورة هود ـ بأنه لا يريد الا الاصلاح الناشيء عن الصلاح :

« إنْ أُريدُ إلاَّ الإصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ وما تَوْفِيقِي إلاَّ باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ »[3] .

أي لا أقصد الا الاصلاح العام لكم ، بالتزامي الدعوة الى ما أمر الله به ، والنهي عما نهى عنه ، فلا أريد نفعا ذاتيا ، ولا مأربا شخصيا ، ولا يتحقق توفيقي لما ارتجي الا بفضل الله وقوته .

وللاصلاح مواطن ، وكلما كان الموطن عاما واسعا شاملا الكثير من عباد الله كان أنفع وأمتع وأروع . ولذلك يقول التنزيل في سورة الانفال :

---

(١) سورة الانبياء ، الآية ٧٢ .
(٢) سورة الانبياء ، الآية ٨٥ ـ ٨٦ .
(٣) سورة هود ، الآية ٨٨ .

« وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ » (١) .

أي الاحوال الواقعة بينكم معشر المسلمين ، فاتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تخاصموا ولا تستبوا .

ويقول القشيري : أصلحوا ذات بينكم بالانسلاخ عن شح النفس ، وايثار حق الغير على ما لكم من النصيب والحظ ، وتنقية القلوب من خفايا الحسد والحقد .

والاصلاح كذلك واجب بين الجماعتين اللتين قد تقتتلان مع أن كلا منهما تنتسب الى الاسلام ، ففي سورة الحجرات :

« وَإِنَّ طائِفَتانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الأُخْرى فَقَاتِلُوا الَّتي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ فإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بالعَدْل وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّما المؤمِنُونَ إِخْوَةٌ فأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ » (٢) .

ويقول الحق جل جلاله في سورة النساء :

« لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَو مَعْروفٍ أَو إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

---

(١) سورة الانفال ، الآية الاولى .
(٢) سورة الحجرات ، الآية ٩ و١٠ .

ابتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » [1] .

فالاصلاح بين الناس مجال فسيح واسع لجهود الصالحين المصلحين من عباد الله سبحانه ، ولقد عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاصلاح حتى روى أنس عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال لأبي أيوب : ألا أدلك على تجارة ؟

قال : بلى يا رسول الله .

قال : .. تسعى في اصلاح بين الناس اذا تفاسدوا ، وتقارب بينهم اذا تباعدوا .

كما ورد قول الرسول : أفلا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟.

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : اصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة .

وجاء في الحديث أيضا :« ان أحدكم مرآة أخيه ، فاذا رأى فيه شيئا فليمطه عنه » .

ونجد للصوفية في فهم الآية السابقة طريقة أخرى ، حيث يرى بعضهم أن « الاصلاح بين الناس » ليس معناه الاصلاح بين الناس بمعنى السعي لازالة شقاقهم ، وتحقيق وفاقهم . بل معناه أن يظهر الداعية بعمله ومعاملته وتصرفاته قدوة عليا لهم ، فهو بهذا ينشر الصلاح بينهم ، فيكون ذلك اصلاحا لهم . يقول القشيري في التعليق على الآية الكريمة : « ومن تصدق بنفسه على طاعة ربه ، وتصدق بقلبه على الرضا بحكمه ، ولم يخرج

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤ .

بالانتقام لنفسه ، وحث الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية الى ربه ، وأصلح بين الناس بصدقه في حاله ، فان لسان فعله أبلغ في الوعظ من لسان نطقه ، فهو الصدّيق في وقت .

ومن لم يؤدب نفسه لم يتأدب به غيره ، وكذلك من لم يهذب حاله لم يتهذب به غيره . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله : غير سائل به مالا ، أو حائز لنفسه به حالا ، فعن قريب يبلغ رتبة الامامة في طريق الله ، وهذا هو الاجر الموعود في هذه الآية » .

ولا عجب في ذلك ، فان الانسان بعمله وتصرفه حينئذ يكون صالحا مصلحا ، وهذا هو طريق الكمال .

ومن مواطن الصلاح والاصلاح المهمة ما يشير اليه قوله تعالى في سورة البقرة :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »(١).

واصلاح أحوالهم بتأديبهم قد يكون أهم من الاصلاح المتعلق بأموالهم .

وثمة ملاحظة نشاهدها في الاسلوب القرآني ، فنحن نجده في كثير من المواطن يجمع بين ذكر التوبة وذكر الاصلاح ، ويأتي ذكر التوبة أولا ، وكأن هذه اشارة ــ والله أعلم بمراده ــ الى أن الانسان الصالح يبدأ أولا بالتوبة للتطهر والتنظف ، وهذه مرحلة نستطيع ان نسميها مرحلة «التخلية» أي التخلص من الرواسب والآثام ، وتأتي مرحلة نستطيع أن نسميها مرحلة

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .

« التحلية » التي يحلي الانسان الفاضل فيها نفسه بالمكارم والمحامد ، وفي طليعتها الاسهام في اصلاح الناس . فلنستعرض بعض الشواهد على ذلك :

١ ــ في سورة الانعام :

« كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أنهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمّ تابَ مِن بَعْدِهِ وأَصْلَح فإِنَّهُ غفورٌ رَحِيمٌ » .

٢ ــ في سورة المائدة :

« فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [١] .

٣ ــ في سورة النساء :

« إلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللهِ وأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ ، فأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً » [٢] .

٤ ــ في سورة النحل :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » [٣]

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣٩ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٦ .
(٣) سورة النحل ، الآية ١١٩ .

٥ ــ في سورة النور :

« إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [١] .

٦ ــ في سورة البقرة :

« إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » [٢] ... الخ

وفي هذه الآية الاخيرة يقول القرطبي : « استثنى الله تعالى التائبين الصالحين المصلحين لاعمالهم وأقوالهم ، المنيبين لتوبتهم ، ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تبت ، حتى يظهر منه في الثاني خلاف الاول : فان كان مرتدا رجع الى الاسلام مظهرا شرائعه ، وان كان من أهل الاوثان جانبهم وخالط أهل الاسلام ، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه ».

* * *

وقد ذكر القرآن كثيرا من أنواع الجزاء والثواب على العمل الصالح، مع ما يقترن به من توبة وتقوى واستقامة ، فهناك تكفير السيئات ، ففي سورة الاسراء :

« إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فإِنَّهُ كانَ للأَوَّابِينَ غَفُوراً » [٣] .

وفي سورة التغابن :

---

(١) سورة النور ، الآية ٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٠ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ٢٥ .

« وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فيها أَبداً ذَلكَ الفَوْزُ العَظِيمُ »[1] .

وهناك مضاعفة الثواب ، ففي سورة سبأ :

« وَمَا أَمْوالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ في الغُرُفاتِ آمِنُونَ »[2] .

وهناك وراثة الارض والسيادة فيها ، ففي سورة الانبياء :

« وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ »[3] .

وهناك ولاية الله تعالى ، وانعم بها من ولاية . ففي سورة الاعراف :

« إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ »[4]

وهناك الحياة الطيبة والاجر الحسن ، ففي سورة النحل :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ

---

(١) سورة التغابن ، الآية ٩ .
(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٧ .
(٣) سورة الانبياء ، الآية ١٠٥ .
(٤) سورة الاعراف ، الآية ١٩٦ .

حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ اجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (١) .

ونفهم من حديث القرآن الكريم عن العمل الصالح والمغفرة أن المعاصي لا تحبط الطاعات ، فالله تعالى يقول في سورة المائدة :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ » (٢) .

والمغفرة ــ كما في لطائف الاشارات ــ لا تكون الا للذنب ، فوصفهم بالاعمال الصالحات ، ثم وعدهم المغفرة ، لنعلم ان العبد تكون له أعمال صالحة ، وان كانت له ذنوب تحتاج الى الغفران ، بخلاف ما قيل ان المعاصي تحبط الطاعات . وقيل ان المعنى أن العبد ــ وان كانت له أعمال صالحة ــ فانه يحتاج الى عفو الله ورضوانه وغفرانه ، ولولا ذلك لهلك .

ونفهم كذلك من حديث القرآن الحكيم عن « الاصلاح » أنه يبعد أهله عن الهلاك ، يقول الحق جل جلاله في سورة هود :

« وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْم وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ » (٣) .

ولتفسير المنار كلام مهم في التعليق على هذه الآية الكريمة جاء فيه : « أي وما كان من شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الامم بظلم منه لها ، في حال كون أهلها مصلحين في الارض ، مجتنبين للفساد

(١) سورة النحل ، الآية ٩٧ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٩ .
(٣) سورة هود ، الآية ١١٧ .

والظلم ، وانما أهلكهم ويهلكهم بظلمهم وافسادهم فيها ، كما ترى في الآيات العديدة من هذه السورة (هود) وغيرها .

وفي الآية وجه آخر ، وهو أنه ليس من سننه تعالى أن يهلك القرى بظلم يقع فيها ، مع تفسير الظلم بالشرك وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية ، وأحكامهم المدنية والتأديبية . فلا يبخسون الحقوق كقوم شعيب ، ولا يرتكبون الفواحش ، ويقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، كقوم لوط ، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود ، ولا يذلون لمتكبر جبار يستعبد الضعفاء كقوم فرعون .

بل لا بد أن يضموا الى الشرك الافساد في الاعمال والاحكام ، وهو الظلم المدمر للعمران .

ويحتمل أن يراد انه لا يهلكها بظلم قليل من أهلها لانفسهم ، اذا كان الجمهور الاكبر منهم مصلحين في جل اعمالهم ومعاملاتهم للناس . أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي ، عن جرير بن عبدالله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عن تفسير هذه الآية ، فقال : « وأهلها ينصف بعضُهم بعضا » . وروى موقوفا على جرير رضي الله عنه . فتنكير الظلم في هذا للتقليل والتحقير ، وفيما قبله للتعظيم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى :

« إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[1] .

والآية تدل على أن اهلاك المصلحين ظلم ، فلذلك يتنزه الله عنه .

وذكر المفسرون في الوجه الثاني القول المشهور عن تجارب الناس ، وهو : ان الامم تبقى مع الكفر ، ولا تبقى مع الظلم » .

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٣ .

ثم يأتي حديث الصوفية عن الصلاح والاصلاح ، فاذا معروف الكرخي يقول على طريقتهم : « ما أكثر الصالحين ، وأقل الصادقين في الصالحين » .ويقول ابراهيم بن أدهم :

« اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين ، حتى تجوز ست عقاب :

أولاها أن تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

والثانية أن تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .

والثالثة أن تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

والرابعة أن تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

والخامسة أن تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة أن تغلق باب الامل ، وتفتح باب الاستعداد للموت » .

ويقول أبو العباس بن عطاء : « خلق الله الصالحين للملازمة . قال الله تعالى : « وألزمهم كلمة التقوى » .

وبعد ، فلنتوجه الى الله بالرجاء في تحقيق الصلاح والاصلاح لأنفسنا ، فضلا من الله ونعمة . ولندع مع معاوية بن قرة قائلين : « اللهم ان الصالحين أنت أصلحتهم ، ورزقتهم أن عملوا بطاعتك ، فرضيت عنهم . اللهم كما أصلحتهم فأصلحنا ، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم، فارزقنا ان نعمل بطاعتك ، وارض عنا » .

وعلى الله قصد السبيل .

الوجـل

عرف العلماء الوجل بأنه الفزع . ومنهم من قـال انه الخـوف ، أو استشعار الخوف . وبعضهم يعرفه بقوله : هو هذه الارتعاشة الوجدانية التي يعبّر عنها بالوجل لمجرد ذكر الله تعالى ، وهي نفسها التقوى ، والقلب المتصل بالله المستشعر لهيبته ينتفض بالوجل لمجرد ذكر اسم الله الاعلى ، لأنه يتمثل ما وراء الاسم من معنى يعيه القلب الواصل ، ويعيا بتصويـره اللسان .

والمراد بالذكر هنا هو ذكر القلب لعظمة الله وسلطانه وجلاله ، أو لوعيده ووعده ، ومحاسبته لخلقه ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله ، سواء كان مع هذا ذكر باللسان أم لا .

ولا يكاد يذكر الوجل في لغة القرآن الا منسوبا الى القلب ، فالقرآن يكرر قوله :

« وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » (1) .

وهو يقول :

---

(1) سورة الانفال ، الآية ٢ .

« وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ »[1] .

حتى يمكن أن يسمى هو الخلق ــ أو هذه الفضيلة القرآنية ــ وجل القلب .

والوجل قريب من الخوف ، ولقد كتبت عشر صفحات عن فضيلة « الخوف من الله » في الجزء الاول من كتابي هذا « أخلاق القرآن » . وهناك قلت اننا اذا واصلنا قراءاتنا في كتب السلف وجدنا جملة ألفاظ متقاربة ، وان لم تكن مترادفة ، منها : الخوف ، والخشية ، والرهبة ، والهيبة ، والوجل ...

وقد فرقوا بين الخوف والوجل بأن الخوف هرب من حلول المكروه عند استشعاره ، والوجل هو رجفان القلب وانصداعه لذكر من يُخاف سلطانه وعقوبته . وفرقوا بين الوجل والخوف بأن الوجل هو استشعار الخوف ، يعني ما يجعل القلب يشعر به بالفعل . وقيل ان الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور بالالم أو الفزع ، والوجل بمعنى الفزع ، وقد يكون من الاجلال والمهابة ، وقد يكون من العاقبة المجهولة.

وقد جاء ذكر « الوجل » في مواطن من القرآن الحكيم ، ففي سورة الحجر :

« وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ، إِذْ دَخَلُوا فَقَالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ، قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ، قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ، قَالُوا بَشَّرْناكَ بالحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ القانِطِينَ ، قَالَ وَمَن

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٦٠ .

يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ »[1] .

والمعنى اللغوي للوجل هنا أبرز من المعنى الاخلاقي ، فقد أمر الله رسوله أن يخبر الناس عن ضيوف ابراهيم من الملائكة حين زاروه ، فنهض الى اكرامهم ، وقيامه بحقوقهم ، وخدمته بنفسه لهم .

ولكنهم أعرضوا عن طعامه لأنهم ملائكة لا يأكلون ، ففزع ابراهيم أو خاف من ذلك لأن الاعراض عن طعام الكرام يدعو الى الريبة ، ولما علم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا قد جاءوا لتعذيب قومه لاجرامهم ، وهو يتمنى هدايتهم .

وهنا قال الملائكة له : لا توجل ، فليس المقام مقام وجل ، ولكنه مقام للفرح ، فقد جئناك لنبشرك بغلام يعيش حتى يصير عليما بفضل الله تعالى. قال ابراهيم : أبشرتموني وقد مسني الكبر ، والكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء ، فبم تبشرونني وقد طعنت في السن ، وعن قريب ارتحل الى الآخرة ؟. قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه الا من كان ضالا . قال : كيف أخطأ ظنكم فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي ؟!

وجاء في سورة الانفال قوله تعالى :

« إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولئِكَ

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٥٠ ــ ٥٦ .

هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » [1] .

ذكر النص الكريم هنا صفات للمؤمنين حق الايمان هي :

١ ــ وجل قلوبهم عند ذكر الله سبحانه .

٢ ــ زيادة ايمانهم حينما يستمعون الى آيات القرآن المجيد .

٣ ــ التوكل على الله جل جلاله .

٤ ــ اقام الصلاة بخشوع واستقامة .

٥ ــ الانفاق مما رزقهم الله عز وجل .

وأول صفة لهؤلاء المؤمنين ــ كما رأينا ــ هي وجل القلب . والمعنى أنه اذا هم أحد أن يظلم مظلمة . وقيل له : اتق الله . كفّ ووجل قلبه . وانما توجل قلوب المؤمنين عند ذكر الله لقوة ايمانهم . ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه .

واذا كان القرآن قد وصف المؤمنين هنا بأنهم اذا ذكر الله وجلت قلوبهم . ووصفهم في موطن آخر . بأنهم تطمئن قلوبهم لذكر الله ، فلا تناقض . لأن الاطمئنان ناشيء من كمال المعرفة وثقة القلب . والوجل هو الفزع من عذاب الله . ولذلك جمع الله بين المعنيين في قوله : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين الى الله ، وان كانوا يخافون الله . فهذه حال العارفين بالله . الخائفين من سطوته وعقوبته .

---

(١) سورة الانفال . الآية ٢ ــ ٤ .

ومن هنا قال بصراء المفسرين ان الوجل قد يكون من ذكر الوعيد المخيف ، ومن ذكر الوعد المطمع ، وقد يكون عند ذكر صفات الجلال لله، وعند ذكر صفات الجمال له سبحانه .

وفي « تفسير المنار » جاءت هذه العبارة : « وقد يقول المؤمن في صلاة التهجد في الخلوة : (الله أكبر) مستحضرا لمعنى كبريائه عز وجل ، فينتفض ويقشعر جلده . فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا ، وظن أن الوجل لا يكون الا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه ، وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته ، ولم يقرأ قوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) . ولم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ، ويفيض دمعه ، من ذكر أسماء الله في آخر سورة الحشر : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) الخ .

ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء . وانما يأخذ مثل هذا من معاني القرآن من فهمه بظواهر بعض الالفاظ بدون شعور بما لها من التأثير في القلوب ، فيقابل بين هذه الآية وما في معناها، وبين قوله تعالى في سورة الرعد : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . فيظن أن بينهما تعارضا ، فيحاول التفصي منه بحمل هذا على ذكر الوعد ، والآخر على ذكر الوعيد ، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ، ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى في الانفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالايمان بالله تعالى والثقة بما عنده » .

وفي تفسير الرازي : « فان قيل انه تعالى قال ههنا : وجلت قلوبهم .

وقال في آية اخرى : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، فكيف الجمع بينهما ؟ وأيضا قال في آية أخرى : ثم تلين جلودهم ولوبهم الى ذكر الله ؟

قلنا : الاطمئنان انما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد . والوجل انما يكون من خوف العقوبة . ولا منافاة بين هاتين الحالتين . بل نقول : هذان الوصفان اجتمعا في آية واحدة . وهو قوله تعالى : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الا ذكر الله » . والمعنى : تقشعر الجلود من خوف عذاب الله ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله » .

وعن ابن عباس في معنى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » أن المنافقين لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند اداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله . ولا يتوكلون ولا يصلون اذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين بقوله : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

ويرى القشيري أن الوجل هنا هو شدة الخوف . فالمؤمنون يوجلون عن مواطن الغيبة ومساكن الغفلة ، ويفيئون الى مشاهد ذكر الله لينالوا السكون منه ، وهم يزيدون عند سماعهم آيات ربهم تصديقا على تصديق، وتحقيقا على تحقيق ، فاذا طالعوا جلال قدره ، وأيقنوا قصورهم عن ادراكه، توكلوا عليه سبحانه . واذا كاشفهم ربهم بجلاله وجلت منهم القلوب ، واذا لاطفهم بجماله سكنت هذه القلوب ، وهم يخافون البعد عنه ، ويفرحون للقرب منه .

ولقد قيل للحسن : يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟.

فقال : الايمان ايمانان . فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والجنة والنار ، والبعث والحساب . فأنا به مؤمن . وان

كنت تسالني عن قول الله تبارك وتعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكـر الله وجلت قلوبهم » الى آخر الآية . فوالله ما أدري أنا منهم أم لا .

وهذا الجواب من الحسن يدل على المكانة الرفيعة لفضيلة «الوجل» .

وجاء ذكر « الوجل » في موطن آخر من القرآن الكريم : في سورة الحج حيث يقول التنزيل :

« وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصَّابِرِينَ عَلى ما أَصَابَهُمْ والْمُقِيمِي الصَّلاةِ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

وهنا عدة صفات ذكرها التنزيل عن المخبتين . والاخبات هو الطاعة باستقامة ودوام . وقد تحدثت عنه في الجزء الثاني من كتابي « أخـلاق القرآن » ص ٢٤٠ ـ ٢٤٨ . وهذه الصفات هي :

١ ـ الوجل عند ذكر الله .

٢ ـ الصبر على ما يصيب الانسان .

٣ ـ اقام الصلاة .

٤ ـ الانفاق من رزق الله

وأول هذه الصفات كما نرى هو الوجل عند ذكر الله .

وعن عمرو بن أوس أن هؤلاء يظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى، والخشوع والتواضع لله . ثم ان لذلك الوجل أثرين : الاول هو الصبر على المكاره . وذلك هو المراد بقوله : (والصابرين على ما أصابهم) ، وعلى ما يكون من قبل الله تعالى . لأنه الـذي يجب الصبر عليـه ، كالامراض

والمحن والمصائب ، فأما ما يصيبهم من جهة الظلمة ، فالصبر عليه غير واجب، بل ان أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ، ولو بالمقاتلة .

والاثر الثاني هو الاشتغال بالخدمة ، وأعز الاشياء عند الانسان نفسه وماله ، أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة ، وهو المراد بقوله : «والمقيمي الصلاة»، وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله: «ومما رزقناهم ينفقون».

وجاء ذكر « الوجل » في سورة المؤمنون ، حيث يقول الحق تبارك وتعـالى :

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ ، أُولئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ »[1] .

أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون لا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الاعطاء ، وهذا من باب الاشفاق والاحتياط . فهم يعطون ما أعطوا على خشية ووجل ، والعطاء هنا عام شامل ، يدخل فيه ـ كما يعبر الرازي ـ كل حق يلزم ايتاؤه ، سواء كان ذلك من حق الله تعالى كالزكاة والكفارة وغيرهما ، أو من حقوق الآدميين كالودائع والديون وأصناف الانصاف والعدل . وذلك انما ينفع اذا قدموه وقلوبهم وجلة ، لأن من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره واخلاله بنقصان أو غيره ، يكون لاجل ذلك الوجل مجتهدا في أن يوفيها حقها في الاداء .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥٧ ـ ٦١ .

ويضيف الرازي قوله : « واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، لأن الصفة الاولى دلت على الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والصفة الثانية دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والصفة الثالثة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير . وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول اليها ... ثم انه سبحانه بيّن علة ذلك الوجل . وهي علمهم بأنهم الى ربهم راجعون ، أي للمجازاة والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الاعمال ، وأن هناك لا تنفع الندامة . فليس الا الحكم القاطع من جهة مالك الملك » .

والوجل على هذا ليس خوفا من معاص قد ارتكبها الانسان ، ولكنه خشية من عدم القبول لطاعات قد أداها وقام بها ، فأصحاب الوجل يخلصون الطاعات بلا تقصير أو كسل ، ومع ذلك يوجلون وكأنهم قد ألموا بذنب ، فهم يخافون ألا تقبل اعمالهم الطيبة . كما قيل :

يتجنب الآثام ثم يخافها   فكأنما حسناته آثام

ولذلك روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟.

فقال : لا يا بنت الصدّيق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو الذي يخاف الله عز وجل .

والوجل عند ذكر الله أقسام تعرض لها بالحديث صاحب « لطائف الاشارات » ، فذكر أن الوجل عند الذكر اما لخوف عقوبة ستحصل ، أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم ، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت ، أو اصلاح أهبة ، أو حياء من الله سبحانه في أمور اذا ذكر اطلاعه

سبحانه عليها لما بدرت منه تلك الامور التي هي غير محبوبة .

ويقال الوجل على حسب تجلي الحق للقلب ، فان القلوب في حالة المطالعة والتجلي تكون بوصف الوجل والهيبة . ويقال : وجل له سبب ، ووجل بلا سبب ، فالاول مخافة من تقصير ، والثاني معدود من جملة الهيبة . فالخوف اذن أدنى منزلة من الهيبة .

والوجل يأتي من الداخل ، ويثور في الاعماق ، وليس الوجل بالمظاهر الخارجية ، ولذلك لاحظ بعض الناس على الحسن أنه يظل في مواطن الذكر أو التأثر ساكتا، فسأله عن ذلك فقال الحسن : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » !!..

ولذلك يفرق القرطبي بين الوجل الصادق والتظاهر بالوجل ، فنراه بعد أن يصور حال الخائفين الوجلين يعرّض بالمتظاهرين المتكلفين فيقول : « فهذه حال العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جُهَّال العوام والمبتدعة الطَّغام (الارذال) من الزعيق والزئير ، ومن النهاق الذي يشبه نهيق الحمير ، فيقال لمن تعاطى ذلك ، وزعم أن ذلك وجد وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فقد كانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله ، والبكاء خوفا من الله ، ولذلك وصف الله أحوال المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال :

« وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ » (١) .

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، فمن كان مستنا فليستن ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا ، والجنون فنون .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه (أكثروا عليه) في المسألة . فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : سلوني ، لا تسألوني عن شيء الا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا .

فلما سمع ذلك القوم أرَمّوا (سكتوا) ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر .

قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا ، فاذا كل انسان لافّ رأسه في ثوبه يبكي . وذكر الحديث .

وروى الترمذي وصححه عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. الحديث . ولم يقل : زعقنا ولا رقصنا ولا زَفَنّا (ضربنا بالأرجل) ولا قمنا » .

ولقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « ما الوجل في القلب الا كضرمة السَّعَفَة (كاحتراق جريدة النخل) فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك » . وهذا يشير الى أن الوجل الصادق هو مفتاح الاستجابة للدعاء . قال العلماء : والسعفة واحدة جريد النخل ، اذا احترق يسمع له صوت ونشيش . وقد شبهت به السيدة عائشة شعور الوجل الذي يلم بالقلب عند ذكر فيخفق له .

ولا ذكر يشعل سعفة الوجل في قلب المؤمن كتلاوة القرآن الكريم والتدبر في آياته :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كتاباً مُتَشابِهاً مثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هادٍ » (١) .

ومما يؤكد هذا ما روي عن شهر بن حوشب أن أم الدرداء قالت له : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، يا شهر بن حوشب ، أمـا تجـد لـه قشعريرة ؟. قال شهر : بلى .

قالت أم الدرداء : فادع الله ، فان الدعاء يستجاب عند ذلك .

وقال بعض السلف : اني لأعلم متى يستجاب لي . قيل له : ومن أين لك ذلك ؟.

قال : اذا اقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لي .

اللهم هبنا نعمة الخشوع لك ، ووجـل القلوب عنـد ذكـرك ، ولا تحرمنا رضاك ورضوانك ، انك أنت البر الرحيم .

(١) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

الفهرست